من أدبنا المعاصر

طه حسين

طه حسين

من أدبنا المعاصر

الطبعة الأولى — نوفمبر ١٩٥٨

طه حسين

من أدبنا المعاصر

الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر

هكذا خلقت

لست أدري أأهنىء صديقنا الدكتور محمد حسين هيكل برجوعه الى القصة أم أهنىء القصة برجوعه اليها ، ولكنى أعلم أن قراء الأدب النقى الصفو هم الجديرون بالتهنئة فقد أتاحت لهم عودة هيكل الى القصة بعد أن كان من السابقين اليها وبعد أن هجرها هجرا طويلا غير جميل أتاحت لهم كتابا رائعا جديرا أن يقرأ وأن يقرأ فى أناة ومهل ، وجديرا حين يقرأ أن يملك على قارئه أمره كله ووقته كله وملكاته كلها أيضا .

فهيكل بارع فى هذه القصة لا يتحدث فيها الى القلب والشعور وحدهما ولا يتحدث فيها الى العقل وحده ، ولكنه يتحدث الى هذه الملكات كلها هى وملكات أخرى غيرها ؛ يتحدث الى السمع بهذا اللفظ السهل العذب النقى البرىء من التبذل والابتذال جميعا ، والبرىء مع ذلك من التعقيد والتكلف ومن هذا التصنع البغيض الذى مازال بعض الناس يشغفون به ويتورطون ويورطون غيرهم فيه ، ويتحدث الى البعض بهذه الأوصاف البارعة لنجوم السماء حين ترسل سهامها المضيئة الى الأرض وللشمس حين تغرب

فتملأ كل شيء روعة وجمالا وتأخذ على الناظرين اليها أبصارهم وعقولهم وأذواقهم جميعا ، وللقمــر حين يلقى ضوءه الهــادىء المطمئن على النيل وعلى البحر وعلى الصحراء وعلى قمم الجبال وسفوحها .

وهو يتحدث الى الضمير حين يقيس أعمــال النــاس بما فيها من خير وشر وبما فيها من احسان الى النــاس أو اســاءة اليهم وبما فيها من ارضاء للعقل وللشــعور الدينى ، مجتمعين أو متفرقين وهو من أجل هذه الأحاديث كلها لا يشغل بعض ملكات قارئه وانما يشغل ملكاته جميعا ، وهو من هــذه الناحية مريح للقارىء ومتعب معا ، يريحه لأنه لا يشغل بعض ملكاته عن بعضها الآخر ويتعبه لأنه يأخذ القارىء فلا يرده الى نفسه والى ما يحيط به من الظروف والى ما يدعوه من شئون الحياة الا بعد أن يفرغ من قصته .

وقد قلت انه يتحدث الى القلب والشعور وأى حديث أقرب الى القلب والشعور من حديث الحب هذا الذى يشقى به صاحبه لما يثير فى نفسه من الأهواء المتناقضة والعواطف المختلطة ويشقى به غيره لما ينغص عليه من بياض أيامه وما يؤرق عليه من سواد لياليه ، ويشقى القارىء نفسه لما يضطره اليه من العناء كل العناء حين يريد أن يهتدى فى هذه الخصومات الملتوية العنيفة بين ألوان

العواطف وضروب الشعور ، وقلت انه يتحدث الى العقـل وأى حديث الى العقل أكثر متاعا من حديث هذه القيم الكثيرة لأعمال الناس وملاءمتها للحق مرة ومخالفتها له مرة أخـرى وموافقتها للعدل حينا وانحرافها عنه حينا آخر وائتلافها مع القصد فى أول النهار واندفاعها الى الجور المسرف فى آخره واضطرابها هـذا المتصل وتأثيرها بهذا الاضطراب فى آراء الناس وأحكامهم فيما يكون بينهم من الصلات بل فيما يكون بينهم وبين نفوسهم من صلات ، وقلت انه يتحدث الى الضمير وأى حديث الى الضمير أدق وأنفذ وأمض فى الوقت نفسه من محاسبة الانسان لنفسه فى كل لحظة من لحظات حياته وتقدير الانسان لكل عمل من أعماله وكل لفظ من ألفاظه ، وبما يمكن أن يكون لهذا اللفظ أو لهذا العمل من أثر حسن أو سيىء قوى أو ضعيف فى نفوس غيره من الناس ، وأى حديث الى الضمير أدق وأنفذ من حديث الدين حين يتخذه الانسان مقياسا لكل ما يصدر عنه من قول أو فعل ولكل ما يضطرب فى نفسه من تفكير أو شعور ، كل هذا تجـده فى الكتاب فتنعم به وتشقى به أيضا تنعم به لأنه يمتعك وتشقى به لأنه لايخرجك من حيرة الا ليدخلك فى حيرة أخرى ، ولأنه يضطرك الى أن تكون مشاركا لأشخاصه حين يرضـون وحين يسخطون وحين يثورون وحين يهدأون ، ثم لا يعفيك الدكتور هيكل من أن تشرف من قرب على محاسبة هؤلاء الناس لأنفسهم واحتكامهم

الى ضمائرهم فترضى عنهم مرة وتسخط عليهم مرة أخرى وتوافقهم الآن لتخالفهم بعد حين وتعطف عليهم فى هذه الصفحة من صفحات الكتاب لتصب عليهم نقمتك بعد صفحتين أو صفحات وأى غرابة فى ذلك وقد قلت لك ان هذا الكتاب متعب مريح ومسعد مشق وممتع مثير ، وانظر معى الى هذه الصبية التى تنشأ فى بيت أسرة من أولى اليسار لا تعرف هذا الشقاء المألوف الذى يعرفه كثير من الناس شقاء البؤس والجوع والحرمان ولكنها معرضة لألوان من الشقاء ليست أقل منها ايذاء للنفس ولا تعذيبا للقلب تأتيها من هذه الحيــاة الناعمة نفسها ، فصبيتنا هذه مدللة بين أبويها هى وحيدتهما ، وهى تنعم بحبهما كله ، وعطفهما كله ، وحنانهما كله لا يشاركها فى ذلك أخ أو أخت وهى لا تنعم بحب أبويها وحدهما ولكنها تنعم بالحب والبر من بعض أقاربها أيضا ومن صديق الأسرة على اختلافهم ومن معلماتها وأترابها حين تختلف الى المدرسة ثم هى لا تفتن بهذا النعيم ولا يدركها البطر أو الاشر ، ولكنها مقبلة على الدرس فى نشاط وجهد وذكاء ولا تكاد تعــرف الصــلاة حتى تقبل عليها اقبالا شديدا ثم لا تكتفى بأداء فرضهـــا ولكنها تعنى بأداء الاتراب والمعلمات فروضهن فهى محتفلة بالمصلى فى المدرسة تنفرد أو توشك أن تنفرد بالقيام عليه فشعورها الدينى قوى يملأ قلبها رضا ، وعقلها ذكى يتيح لها التفوق فى الدرس

وهى مع هذا كله بارعة الجمال رائعة المنظر محببة الى كل من يراها وهى لا تكاد تنشأ وتشب حتى تعرف كل ما منحت من المزايا ، تعرف جمالها وسحر عينيها وتعرف حديثها الى القلوب واختلاب حسنها للألباب ، وتعرف ذكاءها واعجاب المعلمات والاتراب بهـا ويوشك بعض الغرور أن يستقر فى نفسها وانها لفى هذا كله واذا المحنة تفاجئها فأمها مريضة والحاح المرض عليها يشتد من يوم الى يوم واذا هى بعد حين تعرف الحزن اللاذع والألم الممض فقـد فقدت أمها وأصبحت يتيمة يرعاها أبوها الذى مهما يكن حبـه لها وبره بها فهو رجل لا يحسن القيام على تنشئة الفتيات ، ولها عمة صالحة تقية تؤدى الصلوات ، وقد حجت البيت وزارت قبر النبى الكريم ودفعها هذا كله الى امعان فى الدين وهى قد أقبلت من الريف لتقوم على بيت أخيها وتعنى بأمر ابنته وهى تمنح الفتاة من حبها وعطفها شيئا كثيرا ، ولكنها فى الوقت نفسه ترثى لأخيها من هذه الوحدة وتكره أن تنتقل ثروته يوما ما الى من سيتخذ هذه الفتاة لنفسه زوجا فهى تغرى أخاها بالزواج بعد أن أدى للفقيدة حقها من الحزن عليها والوفاء لها ، وماتزال تزين له الزواج وتلح عليه فيه حتى تحببه اليـه ، ثم تنتهى به الى ما تريد فقـد رأت الفتاة فى بيتها امرأة أخرى تقوم مقام أمها وتشاركها فى قلب أبيها وهى ضيقة بهذه الزوج الجديد ما فى ذلك شك وقد أخذت

تعرف الانطواء على نفسها والانفراد بآلامها والشعور بأن غيرها قد اعتدى عليها وسلبها بعض ما كانت تستأثر به من حب ابيها وهى قد منعت من الذهاب الى المدرسة وحجبت عن الناس واضطرت الى أن تقضى وقتها كله مع هذه الزوج التى لا تحبها ولا تجد عندها شيئا من حب وان وجدت عندها كثيرا من التلطف والرفق ، وقد اخذت تؤثر العزلة وتحب أن تخلو الى نفسها وربما استعانت بصلاتها والتمست فيها شيئا من عزاء ولكنها شقية على كل حال وهى تفزع الى الموسيقى لتشغل نفسها عن نفسها وعن هذه التى غصبتها دار أمها وقلب أبيها ، ولكن أباها يرزق صبيا فتحار الفتاة بين الرضى بذلك والسخط عليه ويغلب حبها للصبى آخر الأمر فتعنى به أشد العناية وتشغل به عن كثير من همها ، والصبى يمرض ذات يوم ويدعى الطبيب فاذا شاب لا تنبو عنه عين الفتاة وانما تتصل به ثم تحب هذا الاتصال ، ثم ترقبه وتتمناه وينتهى الأمر فى كثير من التحليل والتعليل الى الخطبة ثم الى الزواج ونفرغ من قصة الأسرة لنخلص لقصة هذا الحب الجديد الذى يحلو الى أقصى ما يستطيع الحب أن يحلو ويمر الى أبعد ما يستطيع الحب أن يبلغ من المرارة ويلين حتى يجعل الحياة نعيما خالصا ويعنف حتى يحيل الحياة عذابا أليما ولست مستطيعا أن أتبع هذه الفتاة بعد أن أصبحت زوجا فيما تقص من حياتها

فهيكل لا يحدثنا عن بطلته ، وانما ينقل الينا حديثها عن نفسها . فحديثها طويل ممعن فى الطول دقيق ممعن فى الدقة بطىء ملح فى البطء مفصل مسرف فى التفصيل ، ولكنها على كل حال قد أحبت زوجها وأحبها زوجها أصدق الحب وأصفاه وأعذبه وأمره فى وقت واحد ، ورزقت منه طفلين صبية وغلاما ، ونحن نعرف أن زوجها طبيب وأنه طبيب ممتاز ، ولكن صاحبتنا طموح مؤمنة بنفسها معجبة بنضرتها مقتنعة بسحر عينيها وسحر حديثها ، تواقة الى أن تبهر الناس بهذه الخصال جميعا وهى تود لو انصرف زوجها عن صناعة الطب الى السلك السياسى لتزدان بها هذه السفارة أو تلك السفارات المصرية فيما وراء البحر خاصة ، وزوجها محب لطبه حريص عليه فيكون بينهما اذن أول اختلاف ينتصر فيه زوجها وتذعن هى لهذا الانتصار ولكن ضميرها الخفى قد أسر فى أعماقه هذه الهزيمة وضاق بها أشد الضيق ، وهى كلفة بالاسفار يأنس ذلك زوجها منها فيرضيها بما ينظم لها من الاسفار المختلفة مرة معه ومرة وحدها لا يصحبها الا الصبيان والمربية ، وهى تذهب حينا الى الأقصر وحينا الى أوربا وهى فى بعض أسفارها تحس افتتان الناس وهيامهم بسحرها فيرضيها ذلك أعمق الرضى ويخيفها مع ذلك أشد الخوف لانها تحب زوجها مخلصة له وتكبر نفسها عن الزلل ، ولكنها مغرورة بحسنها وسحرها

مكبرة لنفسها أشد الاكبار ترى فى تملق الناس اياها واعجابهم بها وافتتانهم بها شيئا طبيعيا لا تكلف فيه بل ترى هــذا حقا لهــا فهى انما خلقت لتفتن بجمالها وتسحر بلحظها ولفظها جميعا ، وهى راضية كل الرضى محتاطة أشد الاحتياط لانها لقيت رجلين فى الاقصر أحدهما ألمانى هام بها هيام العقلاء الذين يعرفون كيف يملكون نفوسهم والآخر مصرى هام بها هيام الضعفاء الذين تعرف أهواؤهم كيف تملكهم وكيف تتسلط عليهم ؟ لقيت هذين الرجلين مع صديقة لها كانت تشتو مثلها فى الاقصر فلم تعد من مشتاها الا وقد بلغت بعض ما تريد من الظفر بالاكبار والاعجاب والثناء وزوجها يبذل كل ما يستطيع وأكثر مما يستطيع ليرضيها ، لا يتردد فى أن يستدين ويسرف فى الاستدانة ليتيح لها الحياة الراضية التى تطمح اليها وليتيح للصبيين ما ينبغى لهما من نعمة ولين ، ولكنه مقصر مهما يفعل لانها ترى نفسها أهلا لأكثر مما يقدم اليها ، والتقصير الخطير الذى يفسد على الزوجين أمرهما يأتى من أن زوج هذه المرأة واثق بها كل الثقة مطمئن اليها كل الاطمئنان فهو لا يغار عليها بل هو لا يغلو فى اظهار الاعجاب بجمالها والافتتان بسحرها فهى اذن مريضة بحب الاعجاب لانها مريضة بالغرور ، وهى تبذل كثيرا من الجهد لتثير الغيرة فى نفس زوجها فلا تستطيع فيملؤها ذلك حفيظة وغيظا ثم لا تلبث الأيام أن تكشف لهــا

ولزوجها عن مرض آخر فى نفسها وهو الغيرة فزوجها لا يعجب بها كما ينبغى ولكنها لا تطيق أن تظهر امرأة لزوجها شيئا من الرضى عنه أو العناية به ، بل هى لا تطيق أن تظهر غيرها شيئا من العناية برجل تعرفه وانما تريد أن يكون الرجال كلهم لها عبـادا وبها معجبين يفتنون بها وحدها لا يشركون بها امرأة أخرى وقد أرادت الظروف أن تئيم صديقتها تلك التى لقيتها فى الاقصر وأن يشغل زوجها وصديق له بأمر هذه الايم واستخلاص ميراثهـا وميراث أبنائها من أسرة زوجها الفقيد ، فتستأثر بها غيرة منكرة تفسد عليها حياتها كلها وتدفعها الى شر عظيم فقد عرفت ذات يوم أن صديق زوجها قد يتزوج هذه الأيم ، فما تزال تسعى حتى تفسد هـذا الزواج وتقطع الصلة بين الصديق وهذه المرأة وهى تحاول ما استطاعت أن تصرف زوجها عن العناية بأمر هذه الأيم ، وبنيـها فلا توفق ، يلح الزوج فى البر والوفـاء ويجن غرورها وتضطرم غيرتها اضطراما وينتهى الأمر الى القطيعة بين الصديقين ثم ينتهى الى هجرها منزل زوجها بل هجرها لمدينة القاهرةوالحياة فى الاسكندرية ليكون المزار بينها وبين زوجها بعيدا وزوجها على ذلك كله رفيق بها محب لها ممعن فى اكرامها مغدق للمـال عليها ، ولكنه كلما أمعن فى العناية بها أمعنت هى فى النفور منـه وهى لا تتحرج من اهانته بمشهد من الناس وهى لا تتحرج من توسيط

صديقه ليظفر منه لها بالطلاق وهى لا تحفل بنصح هذا الصديق ولا بلوم ضميرها لها بين حين وحين ولا بمستقبل ابنيها ، قد ركبت رأسها ومضت فى القطيعة لا تلوى على شىء والغريب أنها تعرف بين حين وحين أنها ظالمة متجنية ولكن هذا كله لا يزيدها الا عنادا واصرارا وهى تنتهى الى ماتريد فتظفر بالطلاق على كره من زوجها البائس الذى طلقها لانه يحبها ولا يريد أن تشقى وهو حى ، ولكن جنون الغرور لا يقنعها بما انتهت اليه وانما يطمعها فيما ليس اليه سبيل ، يطمعها فى أن تقطع كل صلة بينها وبين زوجها وكل صلة بين هذين الصبيين وبين أبيهما وماتزال بصديقها ذلك حتى تسحره كما سحرت غيره من قبل ، واذا هو يصبح لها زوجا ، وهى تريد على رغم ذلك أن تستأثر بالصبيين من دون أبيهما فاذا حكم القضاء بردهما اليه صارت الى المذلة والخنوع وجعلت تتوسل الى زوجها الأول بمختلف الوسائل ليعدل عن الالحاح فى تنفيذ الحكم ، والرجل على رغم هذا كله محب لها رفيق بها فهو يجيبها الى ماتريد ويترك لها الصبيين ويرسل اليها نفقتهما مع ذلك فى نظام ، وقد فسدت حياة هذا الرجل فسادا منكرا ، فساءت حاله المالية ، وزهد فى ممارسة الطب ، ثم جعل السقم والهم يعبثان بصحته حتى أظلته الساعة الأخيرة وهو مشرف على الموت ، وهو على رغم ذلك يريد أن يلقى مطلقته ليرها ويسمع

منها العفو عنه قبل أن يموت ، ولكنه لا يظفر حتى بذلك فيقضى دون أن يراها ودون أن يسمع منها كلمة العفو ولا ينتهى غرورها وغيرتها الى هـــذا الحد البغيض بل هى تأبى الا أن تقطـــع نسب الصبيين بأبيهما وتحمل زوجها الجديد على أن يتبناهما ولكن لكل شىء غاية وليس بد للظلم من أن يشقى به الظالمون ، وما أسرع ما تأتى ساعة العقاب فقد بلغ الفتيان رشدهما وحرصـــا أشـــد الحرص على أن يعودا الى نسبهما ويعرفا أباهما ، وقد فعلا ،وهذه المرأة مضطربة لهذه الأحداث الكثيرة الثقيلة التى اختلفت عليها فهى شقية فى اليقظة مروعة فى النوم وهى تعود الى صلاتها ودينها ممعنة فى التقوى حتى تنهض بأداء الحج وقد تزوج ابناها فتمضى الى حجها ولا تكاد تحرم وتبلغ الحجاز حتى يأخذها شىء يوشك أن يكون انجذابا واذا هى عرضة للأحلام تصنع بها ما تشـــاء والغريب أن أحلامها تصدق . وهى قد أخلصت نفسها لله وبرئت من آثامها كلها ثم زارت المدينةفجنت تقواها كما جن غرورها وتقواها من قبل ، فهى لا تريد أن تعود الى مصر وانما تريد أن تجاور فى المدينـــة لتنعم بالقرب من صاحبها العظيم ولتؤدى صلواته فى مسجده المطهر ولتخلص لله وحده من الأحياء والأشياء ومن نفسها ان استطاعت أن تخلص من نفسها ولكنها تضطر بعد خطوب الى أن تعود الى القاهرة لأن زوجها مشرف على الموت ، ولا تكاد تبلغ

القاهرة حتى تفقده فهى اذن قد آمت وعرفت الحزن وفقدت زوجيها جميعا والغريب أنها أحبتهما جميعا بعد موتهما فهى تزور قبريهما وتضع عليهما الزهر وتتصدق عليهما جميعا . وهى جديرة أن تفرغ لما كانت قد أخذت فيه من التقوى والايمان والمجاورة فى مدينة النبى الكريم ، وقد همت بذلك لولا أن ابنيها كليهما قد رزقا الولد فشغلت بأحفادها وانتقلت من الامعان فى الدين والعبادة الى الامعان فى الحكمة والتدبر فى الأحداث وما تجره على الناس من الخطوب ، وصورت لنا ذلك فى خاتمة قصتها .

ولذلك لخصت لك هذه القصة تلخيصا مخلا ولو قد أردت تلخيصا دقيقا لاستأثرت بهذا العدد كله من دون كتابه الأدباء ولكنى بعد هذا التلخيص لا أتردد على رغم اعجابى بالقصة واستمتاعى بها واطمئنانى الى أن القراء سيستمتعون بها كما استمتعت وسيرضون عنها كما رضيت لا أتردد فى أن أقف عند بعض الملاحظات وقفات قصارا جدا ، ففى هذه القصة بطء مسرف وتفصيل قد يدعو الى شيء من السأم فالكاتب لا يعفينا من الجزئيات التى لا نحتاج اليها مطلقا وهو لا يعفينا من كلمة فضلا عن أن يعفينا من جملة أو فصل وبطلته حين تتحدث عن نفسها لا يكفيها أن تنبئنا بأنها أوت الى غرفتها حين تريد أن تستريح أو حين تكون متكلفة للحاجة الى الراحة ولكنها تنبئنا بأنها ذهبت الى

غرفتها وخلعت ثيابها ولبست قميصا واستلقت فى سريرها ، وأنا أفهم هذا التفصيل حين تدعو الحاجة اليه فى بعض المواطن عندما تريد مثلا أن تتزين لنومها لسريرها لتفتن من يزورها فى غرفتها الخاصة ، وهى قد فعلت ذلك غير مرة مقلدة فيه أمريكية عرفتها فى بعض الفنادق الأوروبية . .

وهذا الاسراف فى التفصيل ليس قليلا ولكنه منثور فى القصة كلها ولو قد أعرض عنه الكاتب وفصل فى موضع التفصيل وأجمل فى موضع الاجمال لكان فى ذلك جمال للكتاب واختصار لطوله أيضا ..

وملاحظة أخرى لست أدرى أمخطىء أنا فيها أم مصيب ورجال القانون وصديقنا هيكل منهم يستطيعون أن يدلونى على موضع الصواب من هذه الملاحظة فقد رأيت آنفا أن هذه السيدة أرادت أن تقطع كل صلة بينها وبين زوجها الأول وألجأها ذلك الى أن تغير نسب ابنيها وتحمل زوجها الثانى على أن يتبناهما بعد أن توفى أبوهما وانهما عادا الى نسبهما حين بلغا رشدهما ، والذى أعرفه أن الاسلام قد محا هذا النوع من التبنى الذى كان معروفا فى الجاهلية ، وان الله عز وجل يقول : وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم . والله ألغى بهاتين الآيتين تبنى نبيــه الكريم لمولاه زيد بن حارثه وأنا أعلم أن هذه السيدة مسلمة تقية تمعن فى التقوى بين حــين وحــين ، ولكنى لا أدرى أخالفت مصر فى قوانينها المدنية المعاصرة عن هذا الأصل من أصول الاسلام أم لم تخالف فان تكن الأولى فقد أصابت هذه السيدة من الناحيــة المدنية الخالصة ولكنها تجاوزت حدود الدين تمعن فيه وان تكن الثانية فكيف استباحت لنفسها وكيف استباح زوجها الثانى لنفسه وكيف استباح القضاء المصرى لنفسه أيضا المخالفة الصريحة عن حكم الدين والقانون جميعا .

وأكاد أعتقد أن صديقنا لم يقف عند هــذا الموضوع وانما اندفع فى تصوير جنون الغرور والغيرة حتى ألهاه ذلك عن ملاحظة الحقائق الواقعة فى أحكام الدين من غير شك وفى أحكام القانون ان لم تكن مصر قد خالفت فى القانون عن أمر الدين .

وملاحظة ثالثة تتصل بهذه الجذبة التى أصابت هذه السيدة حتى دفعتها الى ما دفعت اليه حين حجت الى البيت وزارت المدينة وانقلبت أو كادت تنقلب ولية من أولياء الله الصالحين .

ثم ردت بعد ذلك الى الحياة المألوفة فى غير تكلف ولا مشقة

بل ردت فى خاتمة قصتها الى شيء من الشك المريب فى حقــائق الدين نفسه .

أيرى صديقنا هيكل أن هذا يستقيم لامرأة لها حظ من عقل أم هو يريد أن يصور ما أصاب هذه المرأة من شيء يشبه الجنون فيما تأتى وما تدع . وكم كنت أود لو لم يجعل هيكل لجنون هذه المرأة سبيلا الى الامعان فى الدين مرة والانحراف عنه مرة أخرى وأستأذن صديقى فى أن ألفته فى رفق كل الرفق الى أنه قد نسى هذه السيدة نسيانا تاما حين كتب خاتمة قصتها فهــذه الخاتمــة لا تصور سيدة وانما تصور كاتبا مفكرا مالكا لأمره كله يفلسف الأحداث وحقائق الحياة الواقعة ويشك فيما يسميه الناس العبرة شكا يهيىء له أسبابه ووسائله والأدلة على صدقه وصحته ان جاز أن تقام الأدلة على الشك ، وهذا الكاتب الذى يفكر ويفلسف ولا يكتفى بالشك بل يغرى به اغراء يشبه صديقنا هيكلا شبها قريبا جدا ، وقد كنت أحب أن ينسى الكاتب نفسه فى خاتمة القصة كما نسى نفسه فى أكثر أجزائها فأحسن نسيانها ، وملاحظة أخيرة أذكرها ولا أقف عندها وهى أن صديقى هيكلا لم يرد أن يخلف ظنى به فيما يظهر فقد كنت أغيظه أيام الشباب بأنه يهمل الاحتياط للغته العربية بين حين وحين وكان يرد على بأنى أنا لا أحسن العربية ولا أجيد كتابتها ، وهو قد وفى بحقى عليه فانه يهمل فى غير موضع

حق اللغة ليتيح لى أن أذكره بأيام الشباب ، ومن يدرى لعله يحمل هذا الاهمال على خطأ المطبعة وتقصير المصححين وما أكثر ما يحمل على المطابع والمصححين وهو على كل حال لا يستطيع أن يحمل على المطبعة ولا على المصححين اسرافه فى استعمال اسم الاشارة الذى طال مما عبثت به من أجـله لأنى أراه منافرا بعض الشىء للذوق المصرى الحديث وهو هاتيك وما أكثر هاتيك فى قصـة هيكل ، ولو قد وضع مكانها هذه أو تلك لكان له فى احدى هاتين الكلمتين مقنع وغناء .

أما بعد فكل هذه الملاحظـات لا تغض من قـدر الكتاب ولا تنقص من قيمته الفنية ولا تزهد محبا للفن ومشغوفا بالأدب الجديد بهذا الاسم فى أن يقرأه حفيا به حريصا على الاسـتمتاع بدقائقه والشىء الذى أستطيع أن أؤكده مطمئنا هو أن قارىء هذا الكتاب لن يفرغ من قراءته الا راضيا مغتبطا راجيا أن يمتعه هيكل بين حين وحين بقصة تشبه هذه القصة .

ولكنهم يفهمون مذهبهم على نحو مريح لا يكلفهم جهدا ولا عناء وانما يغريهم بالنقل والتسجيل وهم وادعون لا يحسون شيئا من هذا العذاب الذى يعرفه ويشقى بهالأديب الحق ، حين تعرض له صورة من الصور فيريد أن يؤديها اليك حرة حية قوية تقع فى نفسك فتحدث فيها أثرا مثلها حرا حيا قويا يغريك بالأمل والعمل أو يدفعك الى شقاء اليأس والاستسلام يملك عليك أمرك حين تقرؤه ويلزمك ساعات طوالا وقد يلزمك أياما طوالا لأنه صادف من نفسك حاجة اليه فاستأثر بها . لا يجدون هذا العذاب الذى يجده الأديب الحق حين تعرض له هذه الصورة فيريد أن يؤديها اليك على هذا النحو ليوجهك الى ما يريد أن يوجهك اليه. ولكنه يجدها عصية أبية لا تستجيب له فى يسر ولا تسلم اليه قيادها الا بعد طول الجد والكد وبذل الجهد الطويل الثقيل . فهو يساورها ويداورها . يريد أن يظفر بها ويذللها للغته أو يذلل لها لغته . فكلما خيل اليه أنها قد أصبحت طيعة قريبة المنال وهم أن يضع يده عليها أفلتت منه وارتدت اليه يده خالية لاشىء

فيها . وما يزال فى المساورة والمداورة وفى المحاولة والمطاولة حتى يبلغها وما كاد . كذلك يفعل الأديب الحق . وكذلك يشقى بأدبه ولكنه شقاء خير من السعادة لأنه ملىء بالجهـد وملىء بالنجح أيضا ، ولأنه حين يملك صورها التى يعـرضها عليك واثق بأنه سيملكك وسيملك أمثالك من قرائه لا أثناء القــراءة فحسب بل بعد القراءة بأزمان طوال . ولكن أصحابنا لا يعرفون هذا الشقاء ولا يحبون أن يعرفوه فهو يناقض طبائعهم التى لا تحب الثقــل وانما تحب الخفة ولا تألف الضيق وانما تألف السعة ولا تميل الى العناء وانما تميل الى الدعة . نشأوا على الكلام اليسير يقدم اليهم فى يسر فيقرأونه فى يسر ويتخففون منـــه فى يسر ثم يســتأنفون حياتهم كأن شيئا لم يقدم اليهم وكأنهم لم يقرأوا شيئا .

فما يمنعهم أن يكتبوا كلاما يسيرا كهذا الكلام اليسير الذى يقرؤونه فى كل يوم وتقرؤه آلاف مؤلفة مثلهم فى كل يوم ، ثم ينسونه كمــا تنســاه الآلاف المؤلفة لا يجدون فى ذلك مشقة ، ولايحتملون فيه جهدا ، وانما هى أقلام تجرى وصحف تجمع ثم تقدم الى الناس فتقرأ وتنسى كما تقرأ وتنسى صحف الصباح وصحف المساء .

أعرفت هؤلاء السادة أم لم تعرفهم بعد وما زلت فى حاجة الى أن أقدمهم اليك ! انهم الواقعيــون الذين يملأون عليــك مصر ضجيجا وعجيجا وأخذاً ورداً واختلافا وائتلافا فى هذه الأيام .

وما أحب أن يغضبوا فليس أبغض الى من أن أسوءهم أو أشق عليهم . وأنا أعرفهم رقاقا دقاقا يؤثرون اللين ولا يحتملون الشدة يؤذيهم أيسر القول ويحسبون كل صيحة عليهم هم العدو . ولكن ما الحيلة وقد حاولنا معهم الرفق فلم يجد الرفق عليهم ولا علينا شيئا . ظلوا على واقعيتهم هذه التى لا صلة بينها وبين الفن الا بمقدار ما تكون الصلة بين أحاديث الناس فى الشوارع والطرقات وبين الفن .

ما أكثر ما تحدثت الى الأفراد والجماعات منهم بأن التصوير الفوتوغرافى غير التصوير الفنى وبأن الأديب الحق ليس أداة من هذه الأدوات التى نسميها الفونوغراف والتى تسجل الأصوات مهما تكن فلم يحفلوا بذلك ولم يأبهوا له ولم يلقوا اليه بالا لأنهم لا يريدون أن يتكلفوا مشقة ولا أن يحتملوا عناء ولا أن يبذلوا جهدا وانما يريدون أن يمضوا على سيرتهم هذه كما تمضى الأيام والليالى على سيرتهما منذ كانت الأيام والليالى . فيم يتكلفون استنباط الماء من أعماق الأرض والنيل منهم قريب يستطيعون أن يمدوا اليه أيديهم ويغترفوا منه ماء كثيرا يقدمونه الى الناس غير حافلين بأن ماء النيل يجب أن يصفى قبل أن يقدم الى الشاربين .

وكان القدماء يتحدثون عن شاعرين قديمين بأن أحدهما كان يغرف من البحر وأن آخرهما كان ينحت من صخر . وكانوا

يريدون أن أحدهما كان سهل الطبع سمح الملكة تستجيب له أوابد الشعر اذا دعاها لا تكلفه ابعادا فى السعى اليها وأن آخرهما كان عسير الطبع بطىء الملكة وكانت أوابد الشعر تعصيه وتأبى عليه فيجد فى أثرها ويأخذها بالعنف أحيانا وبالحيلة أحيانا أخرى . وكان لفظ أولهما سهلا سمحا ولفظ ثانيهما صعبا مبهما وكان أولهما يعرض الصورة الغريبة فى اللفظ القريب وكان ثانيهما يعرض الصورة الغريبة فى اللفظ الغريب فأما الآن فيجب أن يتغير معنى هذا الحديث الذى كان القدماء يتحدثون به عن الشاعرين القديمين . فالذين يغترفون من البحر أو النهر فى هذه الأيام لا يؤدون اليك مثل ما كان يؤديه ذلك الشاعر العظيم حين كان يغترف من بحره لأن بحره كان صفوا رائقا لا كدر فيه . وأصحابنا يغرفون من أنهار وبحار يملؤها ما شاء الله أن يملأها من الكدر والغثاء .

فأما النحت من صخر فلا يكاد يوجد فى هذه الأيام لأننا نعيش فى عصر مترف أخص مزاياه أن الحياة قد يسرت على الذين يعيشون فيه فقرب اليهم بعيدها ولين لهم شديدها وأصبحت لا تكلف أكثر الناس الا أقل الجهد .

وأغرب ما فى الأمر أن الشاعرين القديمين اللذين كان أحدهما يغرف من البحر وآخرهما ينحت من الصخر كانا جميعا واقعيين ،

لا يعيشان فى السحاب ، ولا يحاولان اصطياد العنقاء ، ولا يتحدثان الى الناس الا بما كان منهم قريبا يرونه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم ويلمسونه بأيديهم ، ولم تضطرهما الواقعية مع ذلك الى أن يسفوا ولا أن ينظموا الشعر من أحاديث العامة فى الشوارع وانما أديا الى الناس صورا رائعة فى ألفاظ بارعة وكلف بهما الناس أشـد الكلف وذاقوهما كل الذوق ، وهما قد أسرفا فى الواقعية أحيانا فقالا كلاما يأخذنا الحياء حين نقرؤه ويعجزنا الحياء عن أن ننشده جهرة فى هذه الأيام لتغير الأذواق واختلاف الطباع .وكان الشعراء الذين عاصروهما واقعيين أيضا - عاشوا مع الناس واشتقوا شعرهم من لب الحياة التى كان الناس يحيونها .

وقل مثل ذلك فى الذين كانوا يخطبـون وفى الذين كانوا يكتبون . كان أدبنا العربى القديم واقعيا قريبا من الناس مشتقا من حياتهم حتى قال فيه القائلون من أهل الغرب انه كان قليل الحظ من الخيال لأن أدباءنا من العرب القدماء لم يبعـدوا ولم يعيشوا فى السماء وانما عاشوا فى الأرض كما عاش فيها غيرهم من الناس . وأشد من هذا كله غرابة أن هذه الواقعية لم تقصر على العرب وانما عرفها الأدباء من شعراء اليونان والرومان وخطبائهم وكتابهم ، فأتيح لهم مثل ما أتيح لأدباء العرب من البقاء والخلود .

وعرف المحدثون من أدباء الغرب هذه الواقعية فصـوروا للناس حياتهم التى يحيونها فى فن رائع بارع برىء من الاسفاف

والابتذال ، فأما واقعيتنا نحن الجديدة فهى بدع من واقعية الأمم المختلفة قديمها وحديثها شرقيها وغربيها لأن أصحابها لم يريدوا أن يكونوا أصحاب فن وأدب وانما أرادوا أن يكونوا أصحاب تصوير وتسجيل بأداة الفوتوغرافيا وأداة الفونوغراف . ذلك أقرب اليهم وأيسر عليهم وهو كذلك أقرب الى القراء وأيسر عليهم ولكنه بعيد عن الأدب كل البعد لن يكون له حظ من شيوع ولن يكون له حظ من بقاء .

لن يشيع الا أن ينقل الى لهجات الأمم العربية المختلفة ولهجات الأقاليم المصرية المختلفة أيضا ، ولن يبقى لأن حسن ظننا بمصر يملأ قلوبنا ثقة بأنها ستتعلم بعد جهل وستقوى بعد ضعف وسترقى بعد انحطاط وسيأتى عليها يوم قريب أو بعيد تعرف فيه الأدب الحق وتنبذ فيه الأدب الذى زيف على بعض أجيالها تزييفا .

وسيؤرخ الأدب فى مصر غدا أو بعد غد وسيكتشف الذين يؤرخونه أن جيلا من المصريين أحب الكسل وأنس الى الراحة والدعة وأراد مع ذلك أن ينال بالكسل والراحة ما لا ينال الا بالجد والكد والعناء فكتب كلاما ظنه أدبا وقرأه الناس لأنهم لم يجدوا غيره شيئا يقرأونه . وسيقرر هؤلاء المؤرخون أن مصر عاشت وقتا طويلا أو قصيرا وليس فيها من الأدب الحق الا القليل .

وسيثبت المؤرخون أن مصر عاشت حينا من الدهـر طويلا أو قصيرا كانت لغتها الرسمية فيه هي اللغة العربية ، وكانت لغتها بحكم الدستور هي اللغة العربية . ولكن فريقا من كتابها كانوا يصطنعون رطانة تقارب العربيـة وليست منهـا لأنهم لم يكلفوا أنفسهم أن يتعلموا الأداة الأولى للأدب وهي لغته ولأن تعلم هذه اللغة كان عسيرا يفرض على الذين يريدون أن يعرفوها جدا وكدا وعناء ولأن الدولة لم تحاول أن تيسر تعليم هذه اللغة وتقـربه الى الناس . فضاع الأدب عند جماعة من المصريين لتقصير الدولة من جهة وقصور الشباب من جهة أخرى .

وأمر الواقعيين هؤلاء لايقف عند اللغة وحدها ولكنه يتجاوزها الى المعاني أو الى المضمون كما يحبـون أن يقـولوا . فأكثرهم متشائم سيىء الظن بالحياة والأحياء مظلم النفس اذا تحدث الى الناس في كلام مكتوب ، وأقول في كلام مكتوب عمدا . فحياة كثـير من هؤلاء الواقعيين وأحاديثهم التي لا يكتبونهـا ليست متشائمة ولا مظلمة فهم يلقونك ويلقى بعضهم بعضـا فتجـرى أحاديثهم كما تجرى أحاديث النـاس فيها ما يرضى وما يسخط وفيها ما يسر وما يسوء . وربما شاع فيها المرح حين تريد الظروف أن يكون المتحدثون مرحين . وهم كغيرهم من المصريين المعاصرين يأخذون الحياة غير ضيقين بها ولا زاهدين فيها ولا يائسين منها .

فاذا جرت أقلامهم على الصحف تغير هذا كله وأظلمت الحيـاة اظلاما قاتما بعد أن كان النور يشيع فيها بين حين وحين فيمنحها شيئا من الاشراق ، وتسلط الشر على كل شيء بعـد أن كانت صراعا بين الخير والشر .

وكذلك يحيا الواقعيون من شبابنا حياة متناقضة يشتد ظلامها حين يكتبون ويلم بها النـور اذا تركوا القلم والقـرطاس وهم مؤمنون بهذه الواقعية ، مؤمنون بأنهم فيها صادقون ينتجون أدبا صادقا . مثلهم فى ذلك مثل صاحب الأداة الفوتوغرافيـة الذى يعيش كما يعيش غيره من الناس ولكنه لا يسلط أداته الا على ما يحزن ويسوء من مظاهر الحياة المظلمة المؤلمة .

أو مثلهم فى ذلك مثل الممثل الذى يظهر فى المأساة بائسا يائسا محزونا مكلوم الفؤاد مفرق النفس ، فاذا انصرف عن الملعب أو استراح بين فصل وفصل استأنف حياته كما يعرفها فيها الرضى والسخط وفيها الفرح والحزن وفيها الابتهاج والاكتئاب . ومثل الممثل فى الكوميديا يظهر فى الملعب فيغرقك فى الضحك الى أذنيك وربما تراه بعيدا عن الملعب يحيا حياته اليومية فيملأ قلبك لوعة وأسى .

كتابنـا الواقعيون اذن يصطنعون واقعيتهم هـذه اصطناعا ولا يشتقونها من طبائعهم وهم مع ذلك يرون هذا صدقا فى الفن

وليس هذا من الصدق فى شيء كما أنه ليس من الفن فى شيء كما رأيت آنفا .

هذا كلام ثقيل سيقرؤه فريق الواقعيين فيضيقون به أشد الضيق وسيضيفون الى من الجرائم والآثام ما تعودوا أن يضيفوه الى الذين يقولون فيهم ما لا يحبون . ومعذرتى اليهم أنى لا أصدر فى هذه القسوة الا عن رفق بهم وايثار لهم بالخير أيضا .

وسيقرؤه فريق آخر من الواقعيين فيرضون عنه كل الرضا لأنهم يؤمنون بمثل ما أومن به ولكنهم يؤثرون العافية فيسكتون عما لا أحب السكوت عنه . والله يعلم أمخطئون هم أم مصيبون ! فأما أنا فقد ألفت ألا أوثر العافية حين أرى طريق الخير وآثرت أن أكون كما قال ذلك الشاعر القديم :

وما أدري اذا يممت أمرا
أريد الخير أيهما يلينى
أألخير الذى أنا أبتغيه
أم الشر الذى هو يبتغينى

التجديد فى الشعر

لم نفرغ بعد ويظهر أننا لن نفرغ فى وقت قريب من مشكلة العامية والفصحى وما يتصل بها من هذه الواقعية التى يعتذر بها أصحابها عن الكسل والقصور ؛ الكسل الذى يحول دون القراءة والتفقه واتقان أداة التعبير والتصوير والأخذ بأسباب الأدب الرقيع . فلم نكد ندعو كتابنا من الشباب الى أن يعرفوا لأنفسهم حقها فى الجد والاناة والبحث والدرس والاستقصاء والاتقان والارتفاع الى ما يليق بهم وبوطنهم وبما ينبغى له من أدب رفيع ممتاز منزه عن الابتذال مبرىء من هذا السخف الكثير الذى يشيع فيه حتى ثار ثائرهم وأخذتهم العزة بالاثم فجحدوا كل حق وأنكروا كل عارفة ، وتلقونا وتلقوا غيرنا من الذين لم يعرضوا لهم ولم يفكروا فيهم بما استطاعوا من ألوان المساءة وضروب الأذى . وقال قائلهم اننا قد انحرفنا عن المصرية وجهلنا حق وطننا علينا والتمسنا أدبنا فى بطون الكتب وأعماق العصور التى انقضى عهدها والتى لا تمس المصرية الحديثة من قرب أو بعد ولهم الشكر مع ذلك على أنهم عرفوا لكاتب مثلى أنه أصدر كتاب الأيام

فكان فيه مصريا ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن انحرف عن هــذه المصرية الى بطون الاسفار وأعماق الكتب يلتمس فيها أدبا لايغنى عن المصريين شيئا . كأن الذى أصدر كتاب الأيام لم يصدر كتبا أخرى غيره تصور الحياة المصرية على اختلاف ألوانها وطبقــات أصحابها وكأنه لم ينفق حياته معلما لأجيــال من المصريين يثقف عقولهم ويفتح لهم أبوابا الى التفكير الحر المستقيم ، وكأنه لم ينفق حياته كاتبا للأحاديث التى تحصى بالألوف الكثيرة من صميم الحياة المصرية ومظاهرها المختلفة من أدب ودين ومن سياســة واجتمــاع . وكأن زملاءه الذين نالهم مثل ما ناله من القذف بالانحراف عن المصرية لم يصنعوا صنيعة ولم يتركوا آثارا مثــل آثاره أو خيرا منها . وأطرف ما فى الأمر أن هؤلاء السادة لايريدون بشيوخهم شرا ولا يعمدون اليهم بأذى وانما جهلوا وسائل التعبير الصحيح الدقيق فأذوا شــيوخهم من حيث لا يريدون وأطلقوا ألسنتهم وأقلامهم فأرسلت كلاما يقال فى غير طائل ولا يصــور ما فى قلوبهم ولا يعرب عن ذات نفوسهم وانما هى ألفاظ يقولونها ويكتبونها ولا يحققونها لأنهم لا يعــرفون لغتهم ولا يحســنون تصريفها فيما يريدون اليه من القول . فما ينبغى أن نلومهم ولا أن نعتب عليهم ولا أن نأخذهم بما انطلقت به ألسنة جائرة عن القصد وما جرت به أقلام منحرفة لا عن المصرية بل عن الأدب الجديد بأن

يسمى أدبا وننصح لهم ملحين فى النصح أن يحسنوا العلم بالكلام قبل أن يتكلموا وبالكتابة قبل أن يكتبوا وبالأدب قبل أن يخوضوا فيـه .

لم نفرغ بعد ويظهر أننا لن نفرغ فى وقت قريب من مشكلة العامية الواقعية هذه الجديدة حتى أثيرت لنا مشكلة جديدة خليقة حقا بأن نفكر فيها ونطيل الوقوف عندها ونقول فيها كلمة الحق . وهى مشكلة الشعر المنثور أو النثر — المشعور — كما يقول شاعرنا الكبير عزيز أباظه .

ففى الشباب العربى نزعة الى التحرر من قيود الشعر العربى الموروث هم لا يريدون أن يقيدوا شعرهم بالقافية يمضى بعضهم فى ذلك الى أبعد الحدود فيلغى القافية الغاء ويقتصد بعضهم فيحتفظ بشىء من تقفية ولكن فى حدود اليسر والاسماح . وهم يريدون أن يتحرروا من قيود الوزن التقليدى الذى تركه لنا العرب القدماء ، ويذهبون فى هذا التحرر مذهبهم فى شأن القافية يغلو بعضهم فيرسل الكلام ارسالا يطلقه من كل قيد لفظى ويقصد بعضهم الآخر فيقيد كلامه فى أوزان خاصة يراها ملائمة لما يضطرب فى نفسه من العواطف والأهواء والميول . وهـذا كله لا يرضى

شاعرنا الكبير عزيز أباظه فيما نشرت عنه الجمهورية منـــذ يومين وفيما كتب هو حين قدم لبعض الدواوين .

والأستاذ عزيز أباظه حريص على أن يكون محافظا فى الشعر معتزا بهذه المحافظة يرى الخـــروج عليها انحلالا وافســـادا للفن ويسأل الخارجين على هذه المحافظة ما بالهم لايتحررون من قواعد النحو كما تحرروا من قواعد الوزن والقافية . ولشاعرنا الكبير حقه الكامل فى أن يكون محافظا وفى أن يلزم طريقة شوقى والذين قلدهم شوقى من القدماء لا ينبغى لأحد أن ينـــازعه فى شىء من ذلك .

ولكن لغيره فيما أظن الحق الكامل كذلك فى أن يذهبوا فى الشعر المذاهب التى تلائم طبائعهم وأمزجتهم والصور الجـــديدة التى صورت فيها نفوسهم ، لا غرابة فى ذلك ولا خطر فيه فليس الشعر تقليدا وليس الشعر توقيعا وانما الشعر صدى للقلوب والنفوس والطبائع جميعا يصدر عنها كما هى لا كما نحب لها أن تكون . وليس على أحد حرج من التجـــديد فى الشـــعر أوزانه وقوافيه وقد جدد القدماء من العرب فى شـــعرهم فابتكروا فى الاسلام أوزانا لم تكن فى العصر الجاهلى وابتكروا فى العصور المتأخرة أوزانا لم تكن فى الشعر الاسلامى الأول وصنعوا بالقافية مثل ما صنعوا بالوزن .

عرفوا ألوانا من الموسيقى لم يعرفها قدماء العرب وعرفوا فنونا من الغناء، لم يعرفها قدماء العرب أيضا، فلاءموا بين شعرهم وبين ما عرفوا من ألوان الموسيقى والغناء. وأتيحت لهم حضارة جديدة أثارت فى نفوسهم عواطف وأهواء جديدة بل غيرت طبائعهم وأمزجتهم تغييرا فلاءموا بين هذا كله وبين ما أنشأوا من الشعر. لم يكن عليهم فى ذلك حرج ولا جناح وانما كان ذلك ملائما لطبيعة الأشياء فتقصير الأوزان الطوال وابتكار أوزان جديدة والمزاوجة بين القوافى، والمخالفة بينها أحيانا. كل هذه أمور عرفها القدماء ولم ينكرها عليهم أحد الا أن يكون بعض المسرفين على أنفسهم وعلى الناس. وفى بعض العصور الاسلامية تنافس الشعراء والكتاب وعدا بعضهم على فنون بعض فنظم الشعراء نثر الكتاب ونثر الكتاب نظم الشعراء. وهجم بعض الكتاب على فنون من القول كانت مقصورة على الشعر فى الزمان الأول فتفوقوا فيها على الشعراء أحيانا كما فعل الجاحظ حين عدا على فن الهجاء فبلغ فيه بكتاب التربيع والتدوير ما لم يبلغه شاعر من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه، وذهب بعض الشعراء بشعرهم مذهب الكتاب فى التفصيل والتحليل والتطويل كما صنع ابن الرومى فى بعض شعره وفى فن العتاب خاصة.

جدد الشعراء فى أوزان الشعر وقوافيه كما جددوا فى صوره

ومعانيه ملائمين بذلك بين شعرهم وحضارتهم . وما كان لهم من أمزجة جديدة ومن طبيعة جديدة أيضا وضاق بذلك بعض المحافظين فلم يصنعوا شيئا ولم يصدوهم عن التجديد ، وقد لعب شعراء المغرب العربى بأوزان الشعر وقوافيه ما شاء لهم اللعب ، فاستحب الناس وما زالوا يستحبون لعبهم ذاك . وما أظن شاعرنا الكبير عزيز أباظه ينكر الموشحات أو يأبى عليها ان دعته اليها طبيعته فى بعض الظروف . ذلك أن الشعر كما قلت صدى لعواطف القلب وأهواء النفس أو هو صوت العقول كما كان أبو تمام يقول . والأصل فى الفن حرية خالصة من جهة وقيود ثقال من جهة أخرى .

حرية فى التعبير وطرائقه وما يبتكر فيه من الصور والمعانى وقيود يفرضها صاحب الفن على نفسه فى مذاهب الأداء يلتزمها هو ولا يلزمه اياها أحد غيره وقد عرفت الانسانية شعرا رائعا خالدا ولم يعرف القافية لانها لم تلائم طبعه ولا لغته ولا بيئته .

لم يعرف الشعر اليونانى القديم قافية ولم يعرف الشعر اللاتينى قافية وأتيح لكليهما رغم ذلك من الروعة والخلود ما لا يرقى اليه الشك ، وتحلل بعض الشعراء الأوروبيين من الأوزان والقوافى التقليدية فلم يزر ذلك بشعر المجيدين منهم .

فليس على شبابنا من الشعراء بأس فيما أرى من أن يتحرروا

من قيود الوزن والقافية اذا نافرت أمزجتهم وطبائعهم ، لا يطلب اليهم فى هذه الحرية الا أن يكونوا صادقين غير متكلفين وصادرين عن أنفسهم غير مقلدين لهذا الشاعر الأجنبى أو ذاك ومبدعين فيما ينشئون غير مسفين الى سخف القول وما لا غناء فيه .

فاذا أتيحت لأحدهم أو لكثير منهم هذه الحرية الخصبةُ المنتجة المبدعة كنا أحب الناس لشعره ، وأكلفهم به لأننا سنجد فيه ريا من ظمأ وشفاء لهذه الغلة التى تحرق نفوسنا تحريقا فما أشـــد ظمأنا الى نفحات جديدة فى الشعر . وما أحر تشوقنا الى لون جديد من هذا الفن الأدبى الرفيع يرضى حاجتنا الى تصوير جديد للجمــال .

الكلمة الضائعة

انها كلمة شاعت وذاعت وضاعت فى الوقت نفسه بين الذين يكتبون ويقرأون والذين لا يكتبون ولا يقرأون ، وبين الذين يعلمون ويفهمون والذين لا يعلمون ولا يفهمون ، ينطلق بها كل لسان ويجرى بها كل قلم ويخوض فيها كلها متحدث . وهى مع ذلك لا تدل على شىء لاننا نريد أن ندل بها على كل شىء . ألم تعرف هذه الكلمة بعد ؟ انها كلمة الفن . هذه التى تفيض بأحاديثها الصحف والمجلات ، وتضطرب بها ألسنة المتحدثين فى الجماعات القليلة الضئيلة والجماعات الكبيرة الكثيرة ويخلو اليها كثير من الناس بين حين وحين فيضطربون فى خلوتهم اليها بين الأمل واليأس وبين الرضا والسخط وبين السرور والحزن .

يخلو اليها المصور حين ينفق الجهد الثقيل ويحتمل العناء الثقيل ليعرب عن ذات نفسه فى الصورة الرائعة ويخلو اليها صاحب هذه الأداة التى تلتقط الصور الشمسية حين ينقل على الورق صور الأحداث التى تحدث والجماعات التى تأتلف والأفراد الذين يعملون ، دون أن يكلف نفسه جهدا ذا بال الا أن يكون ما ينبغى

من الحركات المستأنية لتلتقط أداته فى عجل وسرع ما يريدها على أن تلتقطه من صور الأشياء والأحياء ٠

كلا الرجلين يسمى عمله فنا ويسميه الناس كذلك فنا وقل مثل ذلك فى الصحفى الذى يتلقط الاخبار من هنا وهناك ليملأ بها مكانا من صحيفة وليطرف قراءه حين يصبحون وحين يمسون ، وقل مثل ذلك أيضا فى الصحفى الذى يفرغ لنقل الأنباء من رسائل البرق الى اللغة العربية أداء لواجبه الصحفى واظهارا لقرائه على ما يقع من الأحداث وما يرسل من الأقوال فى أقطار الأرض وفى الكاتب الذى يفرغ لمعنى من المعانى فيطيل به التفكير ويمعن فيه التروية ويتعمقه حتى يصل الى خلاصته ويصفيه وينقيه وينفى عنه الشوائب ثم يجد ويكد ويشقى ليؤدية الى القارىء فى صورة شائقة رائعة تبلغ أعماق نفسه وتثيره الى الخير فيحبه ويسعى اليه أو تنفره من الشر فيبغضه ويبرىء نفسه منه ويحبب الى الناس ما أحب ويكره اليهم ما كره وينشر فيهم الدعوة الي الاصلاح ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لأن الكاتب أحسن التعبير عما أراد وأحسن التصوير كما أراد ولأنه هو قد أحسن القراءة والفهم والانتفاع ٠ وقل مثل ذلك فى الشاعر الذى ينفق بياض يومه وسواد ليله أو بياض أيامه وسواد لياليه حتى يخرج قطعة من الشعر رائعة بارعة يقرؤها القارىء أو يسمعها

السامع فتشيع الموسيقى فى نفسه ويشيع الجمال فى قلبه وتأخذه البهجة والسرور من جميع أقطاره وفى الناظم الذى يجمع الكلمات من هنا وهناك ويلائم بينها حتى يؤلف منها كلاما له وزن وقافية وقل مثل ذلك فى الرجل الذى يفرغ لخاطر من خواطره أولصورة من صور الحياة أو صور الطبيعة فيملأ بها قلبه وعقله وذوقه ثم يجد ويكد ويشقى كثيرا ويسعد قليلا ليعرب عن ذات نفسه فى هذا اللون أو ذاك بل فى هذه الألوان أو تلك من ألوان النغم حتى اذا أتيـــح له التوفيق أخرج لحنا موسيقيا يملك عليك أمرك كله ويملأ عليك قلبك كله وينسيك نفسك وينسيك ما حـــولك ومن حولك ويخرجك من هذا العالم المادى والمعنـــوى الذى يعيش فيه مكدودا مجهودا ويرفعك الى عالم آخر كله راحـــة وروح ونعيم ، فيجدد نشاطك ويخلقك خلقا جديدا ويهيئك لاستقبال حياتك التى تحياها قويا جلدا قادرا على احتمال أثقالها والنفوذ من مشكلاتها وفى هذا الرجل الآخر الذى يعبث بالأصوات والأنغام فى غير جهد ولا مشقة ليؤلف لك فى آخر الأمر لحنا من هـــذه الألحان التى تثير غرائزك وتغريك باللذائذ وتسلط عليك هذا الفتور الذى يستأثر بالنفس حين تتحكم فيها غريزة من الغرائز وتسيطر عليها شهوة من الشهوات فتفقد عزمها وحزمها وتفقد جدها وحدها ويصيبها شىء يشبه التخدير الذى يصيب المريض

حين يسلط عليه هذا المخدر أو ذاك ليفقد حسه بالألم وشعوره بما سيتعرض له من عبث الجراح بهذا الجزء أو ذاك من أجزاء جسمه .

كل هؤلاء يسمون أعمالهم فنا ويسمنيها الناس فنا كذلك .

وتستطيع أن تمد هذه الكلمة الى ما شئت من المعانى وما أحببت من الأعمال فستجدها رضية طيعة تمتد الى غير غايةمادمت قادرا على أن تمدها . فآثار شكسبير وراسين وموليير ومن شئت من أعلام شعراء التمثيل وكتابة فن وتهريج المهرجين فى الملاعب وفى الاذاعة لتسلية النظارة والمستمعين وتلهيتهم فن ، وكل ما يعرض فى السينما سواء أكان جيدا أم رديئا قيما أم سخيفا نافعا أم ضارا كل ذلك فن ، وليس من شك فى أن كل لعب له حظ من نظام فن أيضا مهما تكن قيمته ومهما تكن نتائجه . وقد كانت فى مصر مجلات خصصت للفن وأهل الفن . وأحسب بعضها لا يزال قائما وحديثها كله أو جله مقصور على ما نسميه فى مصر سينما أو تمثيلا مع أننا نعلم حق العلم أن ليس فى مصر سينما ولا تمثيل ، وقد تتحدث هذه المجلات والصحف عن الموسيقى والموسيقيين ، عن الموسيقى المصرية بالطبع والموسيقيين المصريين بالطبع أيضا . مع أننا نعلم حق العلم أن الموسيقى غريبة فى مصر تزورنا لماما ولا يعرفها من المصريين الا أفراد نعرفهم ونستطيع أن نسميهم وأن

تحصيهم فى غير مشقة ولا عناء لأنهم أقل جدا من القليل وقد تتحدث هذه المجلات والصحف عن الغناء المصرى والمغنين المصريين .. مع أننا نعلم حق العلم أن الغناء فى مصر غريب يلم بها بين حين وحين أثناء الشتاء ، ثم ينصرف عنها قبل أن يقبل الربيع .

كل هذا عندنا فن لأن كلمة الفن قد فقدت فى مصر معناها وقيمتها وأصبحت كلمة من هذه الكلمات التى لا تكاد تشيع حتى تضيع .

ولذلك لم أعجب ولم يأخذنى من الدهش قليل ولا كثير حين رأيت صديقنا الأستاذ سامى داود حائرا فى مقاله يوم الخميس الماضى لا يدرى أيطلب الى مجلس الفنون والآداب أن يوجد فى مصر فن الموسيقى بمعناه الصحيح الدقيق ، وفنا آخر يحبه المصريون كل الحب ويخافون منه كل الخوف تشتهيه قلوبهم وتخافه ألسنتهم فيعبرون عنه بكلمة أجنبية تؤدى بعض معناه ولا تؤدى معناه كله ، وهى كلمة الباليه .

وهم يريدون الرقص بمعناه الفنى الدقيق الذى لا يثير بعض الغرائز ولا يهيج بعض الشهوات وانما يمتع لأنه لون من ألوان الفن الرفيع .

كان صديقنا حائرا مشفقا لا يدرى أيطلب الى مجلس الفنون والآداب أن يوطن الموسيقى والرقص بمعناهما الفنى الرفيع أم

لا يطلب لأنه بالطبع مشفق من أن يغضب قوما لا يحب أن يغضبوا ويثير قوما لا يحب أن يثوروا . وأنا أكتب الآن لأرد على الصديق بعض الطمأنينة وبعض الأمل أيضا . فمن حقه ومن الحق عليه أن يطلب الى مجلس الفنون والآداب تحقيق أمنيته هذه التى يتمناها مثله كثيرون ، ولكنهم يترددون كما تردد ويشفقون كما أشفق لأنهم يكرهون أن يغضبوا قوما ويثيروا آخرين ولأنهم يعلمون أن الذوق الفنى الصحيح الجدير بهذا الاسم لم يشع بعد بين المواطنين وليس من الممكن أن يشيع قبل أن تشيع الثقافة ويعم التعليم ويعرف المصريون حقائق الحياة الحديثة التى يريدون أن يحيوها والتى لا مفر لهم من أن يحيوها الا أن يؤثروا الموت على الحياة والخمول على نباهة الشأن وارتفاع المنزلة .

فالشعوب لا تعيش فى هذه الأيام بالتهريج ولا ترقى باللعب ولا تنهض بأعباء الحياة وهى نائمة كاليقظة ويقظة كالنائمة ، والحضارة التى تلائم الحياة الحديثة شىء كامل لا يمكن أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه الآخر ، وانما يؤخذ كله أو يترك كله . فالذين يأخذونه كله هم الذين يحيون ويرقون ويفرضون أنفسهم على الزمان وعلى غيرهم من الناس . والذين يتركونه كله أو يأخذون بعضه ويتركون بعضه الآخر هم الذين يموتون أو

يخملون ويتعرضون للاستذلال والاستغلال ويطمعون الناس فى أنفسهم ووطنهم ومرافقهم كلها .

وفى الحضارة الحديثة كثير من النقـائص وكثـير من الآثام ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجد فى اصلاح هذهالنقائص وهذه الآثام تنقية الحيـاة الانسانية من كل شائبة تنقص من قدرها فاذا دعونا الى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملةفنحن لا ندعو الى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام ، ولم نسمع قط أن الفن الجميل نقص أو اثم وانما سمعنا دائما وعرفنا دائمـا أن الفن الجميل كمال ونقاء فيه تزكية القلوب وترقية العقول وتصفية الأذواق ، والذى أعلمه من مجلس الفنون والآداب أنه انما أنشىء للاصلاح ولاصلاح الفنون والآداب خاصة . وسبيلهذا الاصلاح انما هو أن يعرف الناس حقائق الفن الجميل وحقائق الأدب الرفيع معرفة لا تقتصر على طائفة خاصة من الناس ، بل تعم الشعب كله ليتقارب أبناؤه فى الفهم والذوق والشعور ولا يمتاز المتـازون منهم الا بالجد والكد فى سبيل الخدمة العامة وفى سبيل اسعاد الناس والجهل لا يسعد أحدا وجفاء الطبعوغلظ الذوق لايسعدان أحدا وليست سعادة الناس فى أن يجدوا فى يسر ما يحتاجون اليه من الغذاء والكساء وصحة الأجسام كما كان يقال فى أيام المرض ، وانما هى فى أن يجدوا هذه الأشياء فى يسر ويجدوا معها صحة النفوس وذكاء القلوب ونقاء الضمائر وصفاء الأذواق وسماحة الأخلاق :

والفنون الجميلة بمعناها الدقيق هى السبيل الوحيـدة الى هذه السعادة يجب أن تسمو نفس الشعب لتسمو آماله وأعماله ومقاصده وغاياته ، والفن الجميل على اختلاف أنواعه هو السلم الذى يتيح للشعب أن يرقى ويسمو ويعنى بعظائم الأمور وجلائل الأعمال .

وجهد المجلس الجديد فى اصلاح الفنون والآداب هو الذى يجب أن يميز الخبيث من الطيب ويفرق بين صحيح الفن وزائفه أو قل ان شئت بين الفن الجميل والتهريج .

فليطمئن الكاتب الأديب وأمثاله الذين يجدون مثل ما يجد ويشفقون من مثل ما يشفق منه ، فأنا أرجو وأعرف أن الزملاء من أعضاء المجلس يرجون مثلى أن يأتى على مصر يوم قريب أو بعيد تعرف فيه للفن الجميل حقه وقدره فتحبه وتؤثره على كل شيء وتنفى عن نفسها وعن غيرها من الشعوب العربية ما تشقى به الآن من صنوف العبث والسخف والتهريج التى تسمى نفسها فنـا وليست من الفن فى شيء :

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى
والا فقـد عشـنا بهـا زمنـا رغـدا

ليست ثورة وانما هي دعاء

لم أحدث ثورة فى الكتابة العربية الا أن يكون الرجوع الا القديم الذى عرفه الناس وقالو به منذ قرون طـوال ثورة ... والذى أعلمه أن الثورة تجديد وما دمت لم أجدد شيئا فلم أحدث ثورة . ومنذ قرون طوال قالت طائفة ضخمة من علماء العربية بأن الكتابة يجب أن تلائم النطق ، وكتب هاؤلاء العلماء علا النحو الذى رآه القراء منذ أيام .

وأنا بعد ذالك لست الداعى الا هاذا النحو الذى عرفه القدماء وانما دعا اليه فى المجمع اللغوى صديق كريم هو الزميل ابراهيم مصطفا .

وكنت مؤيدا له. وخالفنا أكثر الأعضاء لا انكارا لما نرا بل ايثارا للاناة وتقديم المهم علا ما يمكن الانتظار به .

وكان أعضاء المجمع يرون أنهم قد قدمو الا وزارة التربيـة والتعليم منذ سنين طوال تيسيرا للنحو وللنحو التعليمى الذى يلقا الا التلاميذ فى المدارس ليخرجو هاؤلاء التلاميذ من هاذا العناء العظيم المقيم الذى يشقون به فى دروس اللغة العربية ويبغضون

من أجله هاذه الدروس . ويتعلمون ما يلقىا اليهم منها كارهين ليخلصو منه متا فرغو من الامتحان ثم يصبحون وكأنهم لم يتعلمو شيئا .

فآثر هاؤلاء الأعضاء أن يستأنو بوزارة التربية والتعليم حتا اذا اساغت تيسير النحو قدمو اليها تيسير الاملاء .

وكان المجمع وما زال معنيا باصلاح الكتابة العربية لا يكفيه أن يكتب الالف المقصورة كما ينطق بها وانما يعنيه أن يكتب الكلام العربى كله كما ينطق به المتكلمون . والناس جميعا يعلمون أننا لا نكتب كل ما ننطق به وانما نكتب نصفه ونترك نصفه الآخر يذهب مع ريح الصيف أو ريح الشتاء .

فكتابتنا أدنا الا أن تكون اختزالا منها الا أن تكون تسجيلا لصورة الأصوات حين يؤديها بعضنا الا بعض . فأنت حين تنطق بالفعل الماضى « كتب » لا تنطق بكاف وتاء فحسب ولو أردت أن تنطق بهاذه الأحرف الثلاثة وحدها لما وجدت الا النطق بها سبيلا وانما أنت تنطق معها بشيء آخر هو الذى يتيح لك النطق بها . وهاذا الشيء الآخر هو هاذه الفتحات التى تلى كل حرف من هاذه الأحرف .. فأنت اذن تنطق بالكلمة كاملة ، فاذا كتبتها ألغيت نصفها وهو النصف اللين منها . وأبقيت منها نصفها الجامد وكلفت قارئك عناء ثقيلا وهما طويلا . وذلك أنه لا يدرى أينطق

هاذه الأحرف مفتوحة أو يضم الحرفين الأولين منها ، ويخلى ثالثها لحركة الاعراب ، أو يفتح الأول ويكسر الثانى ويفتح الثالث أو يفتح الأول ويسكن الثانى ويترك الثالث لحركة الاعراب .

وقل مثل هذا فيما شاء الله من الكلمات ومعنا ذالك أن علا القارىء أن يفهم قبل أن يقرأ لتصح قراءته وتستقيم . ومعنا ذالك أيضا أننا نجعل الكتابة غاية ونجعل القراءة غاية أيضا ونجعل الفهم وسيلة اليهما . وهاذا هو قلب الأوضاع فالأصل أننا نكتب ليقرأ الناس وأن الناس يقرأون ليفهمو ونحن نريدهم علا أن يفهمو ليقرأو وأغرب من ذلك ان هاذا الداء القديم قد وجد منذ كانت الكتابة العربية وتنبه القدماء له بالقياس الا القرآن الكريم فاستحدثو النقط علا الحروف ولم يكن موجودا واستحدثو الشكل كذالك لتستقيم قراءة القرآن الكريم بغير لحن وخلو بين الناس وبين هاذا الداء العضال يفتك بعقولهم وافهامهم وألسنتهم ما وجد الا الفتك بها سبيلا وكثر التصحيف والتحريف فى الكتابة والقراءة منذ أقدم العصور وأشد غرابة من هاذا كله أن الناس قبلو هاذا الداء العضال واحتملو أثقاله على مر القرون لأن الذين كانو يكتبون ويقرأون منهم ظلو قلة قليلة بالقياس الا الذين لم يكونو يكتبون ولا يقرأون .

فأما نحن فقد أخذنا بالنظم الحديثة وفرضنا الكتابة والقراءة علا الشعب كله وأخذنا نلزم الآباء ارسال أبنائهم وبناتهم الا المدارس

منذ يتمون السادسة منأعمارهم . وأخذنا نكافح الأمية عند الذين تجاوزو سن التعليم . فنحن نريد الناس جميعا علا أن يكتبو أولا ويقرأو ثانيـا دون أن ينشر لهم الكتابة والقـراءة وأن نجعلهما وسيلة لا غاية .

ومعنا هاذا أننا نكلفهم ما لم يكلفهم الله عز وجل نكلفهم آن يفهمو أولا وأن يكتبو بعد ذالك ويقرأو أو قل أننا نكلفهم آن يكتبو دون فهم وأن يفهمو بعد ذالك ان أرادو أن يقـرأو أو قل اننا نفسد عقولهم بالتعليم مع أننا نعلمهم لنصلح عقولهم واننا نفسد طبائعهم كلها بالتعليم ، مع اننا نعلمهم لنصلح طبائعهم كلها ونهذبها . فنحن نقلب الأوضاع فى نفوسهم ونعطيهم من طبيعة الأشياء منذ أول الصبا صورة مشوهة ممسوخة ونطالبهم بمـا لا يطالب بهصبى ولا شاب ولا شيخ . نطالبهم بأن يفهمو الكتاب ليقرأوه .

شر من هاذا كله انى لا أقول جديدا فى هاذا الحديث ،فالناس جميعا يعرفون كل ما قلت ويعرفون منذ زمن طويل أكثر مما قلت ولا يصنعون شيئا ليخلصو من هاذا الداء وليلائمـو بين التعليم الذى جعلناه شعبيا وبين طبيعة الأشياء .

هم يريدون التعليم الشعبى لأن الأمم المتحضرة تفعل ذالك ، ولأنهم لا يبتغون الوسائل الصحيحة الى هاذا التعليم كسلا أو

قصورا أو تقصيرا أو لهاذه الخصال كلها ولخصلة أخرى أدهى منها وأمر وهى الخوف .

الخوف من هاذا ! أو الخوف ممن ! الخوف من المحافظـة والمحافظين من الذين ظنو أن الكتابة مقدسة وحسبو أنهـا قد أنزلت من السماء . فلا يجوز أن تمس باصلاح أو تغيير ، ونسـو أو جهلو أن قدماء المسلمين قد غيروها وأصلحوها ليقرأ بها القرآن الكريم قراءة صحيحة .

ولو قد عرف القدماء من المسلمين أن الكتابة والقراءة يجب أن تفرضا على الناس جميعا كما نعرف ذلك نحن الآن ليسروهما علا الناس جميعا لأنهم فيما يظهر كانو أعرف منا بالحق وأهدا منا الا سواء السبيل .

وقد نشأ عن هاذا الكسل أو هاذا القصور والتقصير أو عن هاذا الاشفاق والخوف أو عن هاذه الخصال كلها ان شئت أن شبابنا جهلو لغتهم . ثم ضاقو بها ثم أنكروها وخرجو عليها ثم أخذو يعرضون عنها ويكتبون بالعامية ويدعون الا الكتابة بهـا ويلحون فى هاذا الدعاء الحـاحا شـديدا ويتنـدرون بالذين يحبـون لغـة القـرآن ويعبثـون بالـذين يتناصـحون . وأخـذنا نحن نلومهم أعنـف اللوم ونقسـو عليـهم فى

النقد والأزراء . والحق علينا أن نلوم أنفســنا أولا وأن نزرى عليها .

فلو قد يسرنا لهم الكتابة والقراءة لكتبو فأحسنو وقرأو فأصلحو وأتاحو للغتهم أن تتطور فى مهل وريث تطورا لا يفسدها ولا يعرضها لهاذا الخطر العظيم وما أكثر الذين يتعلمون وينفقون أعمارهم فى اتقان العلم باللغة فاذا أرادو أن يقرأوها أو يتكلمو بها تورطو فيما ليس لهم بد من أن يتورطو فيه من اللحن الفاحش والخطأ المنكر الفظيع . وليس لهاذا مصدر الا أنهم تعلمو أول ما تعلمو على هذه الأوضاع المقلوبة التى لا تلائم عقلا ولا طبعا ولا ذوقا ولا تؤدى الا غاية .

واذن فكتابة الالف المقصورة الفا دائما ليست الا قطرة من بحر ولم أقصد بها ولم يقصد بها الأستاذ الزميل ابراهيم مصطفا الا شيئا واحدا هو أن يشعر الناس جميعا وأن يشعر القائمون علا التعليم خاصة بأن لغتهم مريضة وبأن الجهود الضخمة والأموال الكثيرة التى ينفقونها فى التعليم مضيعــة لا تغنى عنهم ولا عن المعلمين ولا عن ملايين المتعلمين شيئا ما دامت الكتابة علا هاذا النحو .

وأقول هاذا وأنا أعنى ما أقوله وأعممه ولا أقف به عنــد فهم الأدب وذوقه بل أتجاوز ذالك الى فهم العالم نفسه والانتفاع

به فالذين يقرأون كتب العلم باللغة العربية وحدها لا يفهمونهـا الا قليلا وهم جديرون بألا ينتفعو بما يقرأون ولولا أن علماءنا يقرأون العلم فى اللغات الأجنبية لما تخرج فينا مهندس ولا طبيب ولا عالم ذو خطر ، نحن بين اثنتين اما أن نجد ونأخذ الحياة علا أنها جد فنيسر تعليم اللغة العربية كتابة وقراءة ونموا لينتفع الناس بما يتعلمون وليصبحو قادرين علا أن يؤصلو الحضارة ويوطنوها فى بلادهم واما أن نمضى فيما نحن فيه من العبث وقلب الأوضاع والمخالفة عن قوانين الطبيعة ، فنضيع اللغة العربية ضياعا لا مرد له ولا مخرج منه ونظل عيالا علا الأجنبى دائما حين نحاول درس العلم والتصرف فيه أو الانتفاع بنتائجه وننظر الا الحضارة المعاصرة علا أنها شىء غريب طارىء علينا وعلا أنها شر لابد منه نأخذه مقلدين لأننا لا نريد أن نفنا ولا أن نضيع .

أرأيت الا أن قصة الألف المقصورة لم تكن فى نفسها غاية وانما كانت وسيلة الا شىء أعظم منها خطرا وأبعد أثرا فى بقاء اللغة العربية من جهة وفى اصلاح الحياة العقلية كلها من جهـة أخرى .

فلينظر القائمون علا أمور التعليم والقائمون علا شئون الثقافة

فقد آن لهم أن يتدبرو أمرهم وأن يسألو أنفسهم أيريدون التعليم في غير فائدة ولا جدوا أم يريدون أن يأخذو الحياة على أنها جد واذن فأول ما يجب عليهم هو أن يصلحو الكتابة والنحو لينتفع الصبية والشباب بما يتعلمون .

الكابتان ميخالى

كانت هذه القصة أروع ما قرأت أثنــاء الصيف ، بل أروع ما قرأت أثناء العام كله على كثرة ما قرأت فيــه . ومع أنهــا طويلة توشك أن تبلغ من الصفحات خمسمائة قد طبعت فى حروف دقيقة فلم آس على شيء كما أسيت على الفراغ من قراءتها وما أرى الا أنى سأقرأها ان شاء الله مرة ومرة .

ومع انى فى هذه الأسابيع كنت كغيرى من المصريين مشغول البال بما يجرى من الأحداث السياسية التى اضطرب لها الشرق والغرب جميعا ، فقد كنت أجد فى قراءتها روحا وراحة ولم أكن أحس أن قراءتها تخرجنى مما يشغل بالى من الأحـداث ، فهى تتحدث منذ الكلمة الأولى الى الكلمة الأخيرة منها عن الحـرية والموت ، وأى شيء يشغلنا فى هذه الأيام الا هذا الاختيار اليسير على النفوس الكريمة العسير على النفوس الهينة الذليلة الا هذا الاختيار بين الحرية والموت .

ولم أكد أمضى فى قراءتها شيئا حتى خيل الى أنى أقرأ الألياذة ولكنها الألياذة الحديثة التى لم تنظم شعرا وانما كتبت نثرا والتى

لا تقع أحداثها فى القرن العاشر قبل المسيح وانما تقع فى القرن التاسع عشر وفى أواخر القرن التاسع عشر بعـد المسيح والتى لا تصور أحداثا وقعت فى آسـيا الصغرى حـول هذه المدينة التى حفظ التاريخ اسمها الى آخر الدهر وانما تقع أحداثهـا فى جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط هى جزيرة أقريطش كما كان العرب يسمونها أو جزيرة كريت كما يسميها الناس الآن . فالشبه قوى أشد القوة بين هذه القصة المعاصرة التى كتبها كاتب يونانى حديث وبين تلك القصيدة القديمة التى لم يتفق العلماء على منشئها بعد وان اتفقوا على أنها تنسب الى شاعر يسمى هوميروس.

والكاتب الحديث لا يستوحى ربة الشعر فى أول قصته كما فعل الشاعر القديم وانما يأخذ فى حديثه مباشرة يتحدث الى الناس من وحى نفسه ومن وحى وطنه لا من وحى هذه الالاهة أو تلك من الآلهة القدماء ولكنه بعد ذلك يمضى فى قصته كما مضى الشاعر القديم فى قصيدته مصورا أبرع تصوير وأروعه وأشد استثارا بالقلوب والعقول ثورة اليونان فى جزيرة كريت بالترك الذين كانوا يتسلطون عليها وغضب اليـونان لحريتهم الانسانيـة وكرامتهم الوطنية وحرص اليونان على أن يظفروا من العزة بمثل ما ظفر به مواطنوهم فى الأرض اليونانية الأوروبية وضيق الترك بهـذه

الثورة ومقاومتهم لها وبطشهم بالثائرين بين حين وحين بطشا لا يقوم به الجند وحدهم وانما يقوم به المدنيون الذين استعمروا هذه الجزيرة من الترك وامعان اليونان فى الغضب والثورة كلما أمعن الترك فى المقاومة والبطش وفى هذا الصراع الهائل العنيف الذى لا تخبو ناره الا لتشب ولا تهدأ حدته الا لتزداد هولا وعنفا . فى هذا الصراع يظهر الأبطال الذين يشبهون أشـد الشبه وأقواه أبطال الإلياذة فى حدة القلوب وشدة الذكاء ومضاء العزيمة وسعة الحيلة ودقة المكر والمهـارة فى الكيد والميل مع هـذا كله الى الاستمتاع بطيبات الحياة فى غير قصد ولا اعتدال ، أجل وفى هذا الصراع أيضا تظهر القوى الخفية التى تمد اليـونان بالبأس والأيد وتيسر لهم الأمور حين يشتد عسرها وتفرج عنهم الكروب حين يشتد ضيقها .

فهؤلاء القديسون الذين تقوم تماثيلهم فى الكنائس وتسـتقر صورهم فى الدور يعملون فى هذه القصة عمل الآلهة القدماء فى قصيدة هوميروس ، هذا قديس قد استقر تمثاله فى الكنيسـة لا يشك اليونان فى أنه يخرج بين حين وحين من كنيسته وقـد امتطى فرسه فيملأ قلوب الترك رعبـا وفـرقا والترك أنفسهم يصدقون ذلك ويشفقون منه من حين الى حين . وكما أنك تجد فى الالياذة بعض الصعاليك البائسين الذين يعيشون حول ملوك

اليونان ناقمين عليهم ساخرين منهم مستمتعين مع ذلك بما عندهم من السعة واللين . فأنت واجد فى هذه القصة شعارهم ذاك ، وهم يصلون نار العدو : الحرية أو الموت .

بعض هؤلاء الفقراء البائسين الذين يعيشون حول أغنياء اليونان والترك يستمتعون فى ظلهم بما يساقط عليهم من طيبات الحياة ويطلقون فيهم ألسنتهم مع ذلك بغير ما يحبون . ثم لا يمنعهم هذا حين يجد الجد من أن يبلوا فى الحرب أحسن البلاء ويتعرضوا للهول ويصيحوا . والقصة بعد ذلك كلها حديثة لأنها تصور أحداثا وقعت فى القرن الماضى كما قلت آنفا . فالتفكير فيها حديث والتعبير فيها حديث وأدوات الحرب حديثة أيضا ولكنها على ذلك تصور عقولا يونانية وتركية لا تفكر كما يفكر غيرها من العقول الأوروبية وانما تفكر على نحو خاص أقرب الى تفكير العصور الوسطى ، فيه كثير من الجهل وفيه كثير من الثقة وفيه كثير من الايمان بهذه القوة الغريبة التى تسيطر على الطبيعة وتسخرها وتخالف بها عن قوانينها المألوفة . فتحدث المعجزات أحيانا وترد الشر الذى لا مرد له احيانا أخرى ، وفى القصة بعد هذا كله أبطال لا يمتازون بالشجاعة والبأس وحدهما ولا يمتازون باحتمال المكروه والصبر على ما لا يطاق الصبر عليه والنفوذ الى الموت فى غير تردد ولا تحفظ ولا احتياط ولكنهم يمتازون على ذلك بأشياء

أخرى . ففيهم المعرض عن طيبات الحياة أشد الاعراض وأقواه المؤثر للصمت الذى لا يكاد يتكلم الا حين لا يكون من الكلام بد المؤثر للعبوس الذى لا يبسم للصديق ولا يبسم للزوج ولا للأبناء حين يخلو اليهم ولكنه على ذلك يخلو الى لهوه مرتين فى كل عام فيجمع اليه نفرا من الصديق ويخلص لهم ويخلصون له فى نفق من أنفاق داره أسبوعا كاملا لا يلقون فيه أحدا ، قد عكفوا فيه على لهوهم ، فهم يشربون ويأكلون ويسمعون للموسيقى وصاحبهم ذاك جالس منهم مجلس الملك الغضوب العنيف قد قطب جبينه وغشى وجهه العبوس . فهو يشرب كما يشرب أصحابه ويأكل كما يأكلون ويسمع للموسيقى كما يسمعون لها .

لكنه عابس دائما مقطب دائما قد علق سوطه الى جانبه ينشط به أصحابه ان أدركهم الفتور حتى اذا انقضى الأسبوع صرف أصحابه ومضى يضطرب فى أعمال الحياة كأنه لم يفرغ للهو ولم يعكف عليه .

وفهم البطل العابث دائما المداعب للصديق دائما الذى لا يغضب الا حين يجد الجد والذى لا يكره أن يأخذ من الحياة كلها ما تقدم له من اللذات غير حافل بما كان أمس ولا بما سيكون غدا من جلائل الأعمال وعظائم الأمور لا يحرص على الحياة ولا يرهب الموت ولا يحفل الا بشىء واحد هو أن يحقق الحرية

لجزيرته حين تتاح له الفرصة لتحقيقها ومنهم هذا الذى آمن بالعدل واستيقن بأنه يجب أن يملأ الأرض كلها بعد أن ملأها الجــور كلها . وان جزيرته يجب أن تنال نصيبها من هذا العدل وأن الترك هم أصــل الجور وأن الأقــوياء من مــلوك أوروبا قادرون على أن يردوا الى جزيرته حقهــا من العــدل ويعينوا أهلها على اجــلاء الترك عنهــا كما أعانوا اليونان على اجــلاء الترك عن الوطن اليونانى الأوروبى . وهو من أجــل ذلك قــد لزم داره لا يكاد يبرحها وهو ينفق نهاره كله فى كتابة الرسائل الى هؤلاء الملوك والى رؤساء الجمهوريات . يكتب مرة الى فيكتوريا ومرة أخرى الى القيصر الروسى ومرة ثالثــة الى رئيس الجمهــورية الفرنسية يكتب دائما وينتظر رد الملوك دائما ويسأل كل صباح عما حمل البريد اليه . ولكن البريد لا يحمل اليه شيئا ولا يفل ذلك من عزمه فهو كاتب دائما منتظر دائما ولا يمنعه ذلك من أن يموت — حين يجد الجد — موت الأبطال .

ومنهم هذا الشيخ الذى أنفق حياته مجاهدا يثور مع الثائرين ويقــود فرقته ويخوض معها غمرات الموت فاذا أخفقت الثورة وخبت نارها عاد الى قريته فلها واستمتع بالحياة وأضاف مالا الى مال وثراء الى ثراء وثمر ثروته ما وجد الى تثميرها سبيلا .

واستكثر من الولد وحث أبناءه على أن يستكثروا منه لأن

الجزيرة فى حاجة الى أن يكثر فيها الشباب المجاهدون . وهو يدفع الشباب من أبنائه الى الجهاد بعد أن أثقلته السن ويبتهج حين يعلم أنهم قد أحسنوا البلاء فيه ولا يأسى حين يعلم أن أحدهم قد قتل فى هذا الميدان أو ذاك وانما يغتبط بذلك ويحتفل له فيطعم الناس ويسقيهم ويعطيهم السلاح ويرسلهم الى الميدان ليكسبوا الحرية للجزيرة أو يموتوا كراما . والناس يأكلون عنده ويشربون ويطربون ويأخذون سلاحه ويمضون به الى الميدان فمنهم من يموت كريما ومنهم من يعود وقد أحسن البلاء وانتظر فرصة أخرى ليكسب الحرية للجزيرة أو يكسب لنفسه موتا كريما .

وكما أن الالياذة تصور أول ما تصور غضب أخيل البطل اليونانى القديم بل هى تدور كلها حول هذا الغضب فان هذه القصة تدور كلها حول بطل حديث غضب فكان غضبه محور القصة وقوامها ، به تبدأ وبه تنتهى . وهذا البطل هو الكابتان ميخالى الذى جعل الكاتب اسمه عنوانا لهذه القصة وان جعل لها المترجم الفرنسى عنوانا آخر هو الحرية أو الموت .

والكابتان ميخالى هو هذا البطل الذى أشرت اليه آنفا والذى هو مغضب دائما عابث دائما والذى لا يكاد يخرج من صمته الا حين تدعوه الضرورة الى أن يقول شيئا . فاذا قال أوجز فى القول أشد الايجاز وهو على ذلك عريض فى الفضاء طويل فى

السماء مهيب المنظر والمظهر يملأ الأرض من حوله خوفا ولا يتحدث الناس اليه الا فى تحفظ أى تحفظ تخافه زوجه فلا تكلمه الا أن يزيدها على ذلك وتكبر ابنته وتود لو كانت فتى لتسير سيرته وتتخذه لها مثالا وتخفى امرأته عليه صبيتها الصغيرة لأنه أعلن اليها أنه لا يحب أن يرى البنات ولا أن يسمع صوتهن ويحذو ابنه الغلام حذوه فيقود أترابه فى المدرسة ويغريهم بالكيد للمعلم ويسبقهم الى ذلك ويحمل عنهم تبعاته .

وكابتان ميخالى لا يثير الخوف فى نفوس اليونان وحدهم بل يثيره فى نفوس الترك أيضا فهم يرهبونه ويتقونه ولا يعاملونه الا فى تلطف له وتودد اليه وله خصم من الترك عنيف مثله قوى مثله مغامر مثله أيضا وقد اختصما ذات يوم فاذا الكابتان ميشيل يأخذه من منطقته فيرفعه ويهزه فى الهواء ويلقيه على سقف من السقوف والتركى منذ ذلك اليوم يكبره ويتجنب الاساءة اليه .. وفى ذات يوم يرسل هذا التركى الى الكابتان ميخالى غلامه الأسود يدعوه لزيارته فيتردد الكابتان ميخالى طويلا ثم يزوره لا خوفا منه على نفسه بل خوفا منه على اليونان . وهو قد سمع مواطنيه ذات يوم يتحدثون من حوله فيسأل بعضهم بعضا عما يحب أن يملك أهو الفرس الأصيل الذى يركبه ذلك التركى أم هى الزوجة الشركسية الحسناء التى يحجبها ويحبها أشد الحب وأقواه ويغار

عليها أعنف الغيرة وأعظمها فينهرهم ويحـذرهم أن يخوضـوا عنده فى مثل هذا الحديث . فهو لا يكره شيئا كما يكره أن تذكر المرأة أو الترك عنده ، هو يزدرى المرأة لأنها تغرى باخلاد الى الدعة واللذة ويزدرى الترك لأنهم عدوه وعدو اليونان منـذ افتتحت قسطنطينية وقد اشتد عداؤه وعداء اليونان للترك منذ تحررت بلاد اليونان وظلت كريت خاضعة لسلطان الترك . وقد أقبـل الكابتان ميخالى ذاك مساء على قصر نورى بك مستجيبا لدعوته. فتلقاه التركى أحسن لقاء وتحدث اليه فى رفق عن أخيه ذاك المقيم فى قرية خارج أسوار المدينة والذى يؤذى الترك بالقول والعمـل والذى اجترأ ذات يوم فحمل حمارا ومضى به الى المسجد ليقيم الصلاة . قال التركى وما أريد أن آخذه باثمه فيفسد الأمر بيننا وبين اليونان وانما أتوسل بك اليه لتكف عنا يده ولسانه ، فنكف عنه أيدينا وألسنتنا .

وقد سمع له الكابتان ميخالى ثم سكت عنه وكاد الأمر يفسد بين الرجلين ثم بدا للتركى فقال لصاحبه ان المدينة لاتحتملنا جميعا فلابد لأحدنا من أن يقتل صاحبه أو نصير الى الاخاء وأنا أوثر ذلك فهلم نحدث بيننا اخاء يمحو ما تكن قلوبنا من العداء . ثم مد ذراعه الى الكابتان ميخالى فأحدث فيها جرحا أسال دمه ومد الكابتان ميخالى ذراعه الى التركى ففعل بها مثل ذلك ومزج دمه ودم صاحبه فى كأس شرب منها كلاهما جرعة فأصبحا أخـوين

لا تستطيع الأحداث أن تعدو على ما بينهما مـن المودة وابتهج التركى بذلك أشد الابتهاج فدعا بالخمر وشربا على اخائهما ثم لعبت الخمر بعقله شيئا فألغى كل حجاب بينه وبين أخيه وصفق فأقبلت خادم له سوداء فأمرها أن تدعو زوجه أمينة لتحضر ومعها قيثارتها وما هى الا أن تقبل الزوج الشـابة ذات الحسن الرائع والجمال الذى يخلب الألباب فلا يكاد الكابتان ميخالى يراها حتى يؤخذ واذا هى قد ملكت عليه قلبه وعقله جميعا . وأخذت الحسناء فى العزف فسحرت اليونانى وأخرجته عن طوره ولكنه على ذلك يكظم حبه وغيظه ويضع أصبعين من أصابعـه فى كأس أمامه ثم يفـرج بينهما فى عنف فيحطم الكأس ويسيل ما فيها من الخمر . وترى الشركسية ذلك فتسحرها وتبهرها هـذه القـوة وترمى زوجها التركى بنظرة فيها كثير من الازدراء وتتحداه سائلة اياه أن يفعل كما فعل أخوه . ونورى بك ينظر ويعجب ويأخذه الغيظ ويثيره التحدى ويهم أن يفعل مثل أخيه ثم يشفق أن يدركه الضعف واذا هو مستخذ متهالك . وقد نهض اليـونانى فودع وانصرف وفى قلبه من الفتون والغيظ والحفيظة ما فيه . ويصـل الى داره وقد أضمر شيئا ولكنه يتهيأ لما أضمر فيقبل على لهـوه ذلك يدعو أصحابه أولئك ويعكف معهم فى نفق من أنفاق الدار على الطعام والشراب والموسـيقى ولكنـه لا يتحـرك للخمـر

ولا للموسيقى لا يبسم ولا ينطق وانما هو مغضب ينظر أمامه ويشرب ويدخن ويخلى بين أصحابه وبين ما يصنعون غير حافل بهم ولا ملتفت اليهم . وقد تعود أن يقضي معهم فى لهوهم ذاك أسبوعا كل ستة أشهر ، ولكنه فى هذه المرة يقطع الأسبوع قبل أن يتقدم ويثور فجأة فيلهب أجسام أصحابه بالسوط حتى يخرجهم من النفق وهم سكارى لا يعرفون كيف يصنعون وقد خلا الى نفسه حتى سكت عنه الغضب شيئا ثم ركب فرسه ومضى الى قهوة يجتمع فيها الترك من أهل المدينة وأسراتهم خاصة . فدخلها مقتحما على ظهر فرسه وطرد منها روادها من الترك بسوطه وصياحه وأمر صاحبها أن يهيىء له قدحا من قهوة يشربها كما هو لا يترجل ولا يتخذ مجلسا . والترك يهمون أن يقاوموا ولكن عقلاءهم يردونهم عن ذلك اشفاقا من العاقبة . وقد ذاعت فعلته هذه بين الترك فأثارتهم ، وبين اليونان فأخافتهم ، أراد أولئك أن ينتقموا وأشفق هؤلاء من المذبحة ، وخاف بعض القوم بعضا ، وكان الوالى أشد القوم خوفا ، فجمع اليه سراة الترك وحاول أن يكفهم عن الشر مخافة الثورة وائتمر القوم وطال ائتمارهم ثم انتهوا الى أن أخذ نورى بك نفسه أمامهم بقتل الكابتان ميخالى فرضوا ورضى الوالى وأمره أن يتلطف فى ذلك .

ومضت أيام لم يغير فيها الكابتان ميخالى من سيرته شيئا بل جعل يغدو على عمله ويروح الى أهله ويركب فرسه بعد ذلك فيخرج من المدينة ويمضى أمامه لا يلوى على شيء يفرج عن نفسه

بعض ما يملأ صدره من الغيظ والهم ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئا فيعود الى داره غضبان أسفا لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد . وفى ذات يوم يخرج نورى بك من المدينة على جواده الأصيل ويمضى الى القرية التى يقيم فيها أخو الكابتان ميخالى وهو مثله كابتان قد خاض غمرات الحرب وقاد فيها فرقته وقتل فيها كثيرا من الترك وقد تحرج نورى بك من أن يعرض للكابتان ميخالى خوفا منه أو رعاية لما بينهما من الأخاء فقصد قصد أخيه ذاك يريد أن يقتله عقابا له على اهانته للمسجد ويلتقى الخصمان ويقتتلان ويقتل نورى بك أخا الكابتان ميخالى ولكن هذا لا يموت حتى يفعل بخصمه فعلة نكراء يضرب بخنجره بين فخذيه فيلغى رجولته الغاء .

وقد عاد نورى بك الى داره كما استطاع وأوى الى سريره بين الحياة والموت وقام الأساة على جراحه يأسونها كما يستطيعون وسعى السعاة بموت أخى الكابتان ميخالى الى أهله أولا والى الكابتان بعد ذلك فشغل أهل القتيل بجنازة قتيلهم وشارك فيها الكابتان . ورأى الكابتان بعد الفراغ من الجنازة ابن أخيه غلاما لم يبلغ الحلم بعد ، رآه يتهيأ للثأر من قاتل أبيه . فرده عن ذلك ساخرا منه ومضى الى داره ولكن الغلام لم يرتد وإنما أخذ خنجر أبيه ومضى أمامه لا يلوى على شئ غير حافل بزجر عمه ولا بنهى أمه . ومنذ ذلك اليوم بدأت طلائع الثورة . فهذا الغلام لم يرح

ولم يسترح حتى قتل غلاما تركيا فى مثل سنه من أقارب نورى بك ثم اشتد فى العدو بعد ذلك لاجئا الى الجبل فاحتمى به وأخذ الشباب يجتمعون اليه مغاضبين للترك خارجين على السلطان وثارت ثائرة الترك بالطبع فهموا أن يبطشوا باليونان فى مدينة كانديا عاصمة الجزيرة وفيما حولها من القرى . ولكن الوالى وأصحاب المصالح منهم كانوا يمسكونهم ويصدونهم عن هذا البطش فى كثير من العناء ايثارا للعافية وانتهازا للفرصة .

واضح أن الكابتان ميخالى قد أزمع الثأر لأخيه من نورى بك ولكنه جعل ينتظر شفاءه وجعل هذا الشفاء يبطىء وجعل الترك يتحرقون شوقا الى الانتقام وفى أثناء ذلك أو قبل ذلك بقليل زلزلت الأرض فى الجزيرة زلزالا يسيرا أخاف الناس وأخرج كثيرا منهم من بيوتهم . وخرجت بين الخارجين أمينة تلك الشركسية مذعورة تتبعها خادمها السوداء وقد ملكها الذعر فأغمى عليها ورأى ذلك كابتان يونانى شجاع يقال له بولكسنجيس وهو من أصـدقاء الكابتان ميخالى فخف لنجدتها ولم يكد يراها حتى شغفته حبا .. وما هى الا أن تتصل الأسباب بينه وبين الشركسية واذا هو خليل لها قد أنساه حبها أو كاد ينسيه ما بين الترك واليونان من العداء . وهو يروح اليها اذا كان الليل من كل يوم وقد أخذ يعنى بشخصه وزيه وظهرت عليه آيات ذلك فيما كان يتضوع حـوله من نشر

المسك . ولم يتحرج من أن يتحدث فى ذلك الى صديقه الكابتان ميخالى فلامه فيه أعنف اللوم وكاد يصمه بالخيانة حتى فسد الأمر بينهما . ومن هنا تتعقد القصة من جهة ويشتد شبهها بالالياذة من جهة أخرى . فقد كان غضب أخيل فى الألياذة ناشئا عن أن اجامنون قد غصب جارية حسناء من أسراه .

وهذه الشركسية التى ملكت قلب الكابتان ميخالى يستأثر بها عدوه وأخوه نورى بك لأنه زوجها وان لم تحببه ويستأثر بها من ناحية أخرى صديقه وزميله فى الحرب بولكسنجيس .

وهى تمنحه من عطفها ولطفها ما يشاء وان كانت فيما بينها وبين نفسها لا تحب الا ذلك الرجل القوى العنيف الذى رأته يحطم الكأس حين فرج بين أصبعيه .

وقد جاءت الأنباء الى الكابتان ميخالى بأن نورى بك قد أخذ يبل من جراحته ثم جاءته الأنباء بأن شفاءه قد تم وبأنه قد أخذ يخرج فى المدينة وفيما وراء المدينة على جواده ذلك الأصيل . فرأى أن قد حان الوقت للظفر بثأره . وأقبل ذات يوم على قصر نورى بك فتلقاه صاحب القصر لقاء حسنا وعرف أنه أقبل يطلب منه المبارزة وهم بأن يتحدث اليه فى ذلك ولكن الكابتان ميخالى لم يلبث أن رآه ضعيفا منهوكا لا يكاد يقدر على شىء فانصرف عنه رفيقا به يرى أن مبارزة مثل هذا الرجل المجهود لا تليق بمثله

وأحس نوري بك ذلك . فلم يلبث أن أسرع الى غرفتــه فأوصى بأن ينحر جواده على قبره ثم قتل نفسه . وبلغ الغضب بالترك أقصاه فثاروا باليونان وجعلوا يقتلون الرجال والنساء والأطفال وجعل القادرون على حمل السلاح من اليونان يفرون من المدينة وجعل رؤساؤهم والكابتان ميخالى خاصة يواعدونهم على اللقاء والتجمع فى الجبل وما هى الا أن تصبح الثورة أمرا واقعا وتبلغ من العنف أقصاه ويضطر الوالى الى أن يقاومها بما يملك من قوة وجند .

ويشارك الرهبان فى هذه الثورة أشد المشاركة فيحاصرهم الجند فى ديرهم ويخف الثائرون لمعونتهم وقد اجتمع القادرون على الحرب من أبطال الثورات الماضية فاستأنفوا القتال كعهدهم به أيام الشباب . وتعاون الصديقان المختصمان فى هذه الشركسية تعاونا موقوتا . وكانت هــذه الشركسية قد أزمعت أن تتنصر وتتزوج خليلها . فلما شبت الثورة فرت الى القرية التى تقيم فيها أسرة هذا الخليل وأقامت تتعلم أصــول المســيحية والاقتران بصاحبها فى يوم معلوم وأقبل ذات ليلة بعض اليونان فأنبأ الكابتان ميخالى بأن الترك قد اختطفوا هذه الشركسية . وأزمعوا العودة بها الى المدينة ليمسكوها على دينها ويعاقبوها على خيانتها . فيختار الكابتان ميخالى رهطا من أصــحابه ويسرع بهم فى أثر هؤلاء

الترك ويستنقذ منهم الشركسية ثم لا ينظر اليها وانما يأمر أحد أصحابه بأن يذهب بها حتى يحرزها فى بيت من بيوت أسرته هو .

فاذا عاد الى مكانه من الموقعة كان الترك قــد انتصروا على الثائرين فحرقوا الدير وقتلوا رهبانه وفرقوا حماته وكان اليونان قد افتقدوا قائدهم ، فلم يجدوه أشد ما يكونون حاجة اليه . فلما عاد ورأى بقايا الدير تحترق أزمع أن يقاوم الترك ولو احترق كما يحترق هذا الدير . ولكنه على ذلك مشغول بالشركسية يريد أن يخلص منها ليفرغ للحرب . وهو لا يحفــل بسخط اليونان عليه ولومهم له وتشهيرهم به . وانما يمضى حتى ينسل الى تلك الدار التى تقيم فيها الشركســية ذات ليلة فيطوف بها كاللص ثم يدخلها متلطفا ويتجسس على الشركسية حتى يعرف الحجرة التى هى نائمة فيها فيسعى اليها خفيفا حتى اذا وقف بازائها ملأ عينيه منها وقد أفاقت الشركسية من نومها فرأت شخصه وعرفته ولكنه لم يمهلها وانما أغمد خنجره فى صدرها ثم استله وانصرف به عائدا الى مكانه من الجبل متهيئا لحرب الترك .

واتصلت الثورة ، ما استطاعت أن تتصل ، حتى مل الترك طولها وشدتها واشتد بلاؤها على اليونان وقد جعلت الامداد تصــل من القسطنطينية وجعــل اليونان يستيئسون من النصر وجعــل

الوالى يؤمن الثائرين ليعودوا الى الحياة العاملة ويجنحوا الى السلم وجعل النصح يصل من أثينا الى اليونان بأن يضعوا السلاح وأخذ اليونان يسمعون لهذا النصح ويضعون أسلحتهم ويعودون الى أعمالهم يضمرون فى نفوسهم انتهاز الفرصة لثورة أخرى حين تتيحها لهم الظروف الا رجلا واحدا لم يقبل أمان الوالى ولم يحفل بجيوش الترك ولم يسمع لأمر الأسقف ولم يحفل بنصح أثينا وانما ظل رابضا فى الجبل ناصبا حربة للترك ومعه ابن أخيه ذاك الغلام ورهط من اليونان لا يبلغون العشرين وقد أخذ بعضهم يتركه حتى اذا مضى غير بعيد استخذى منه ثم عاد اليه . وقد جاءه رسول أبيه الشيخ ينبئه أن أباه مشرف على الموت وأنه يريد أن يراه قبل أن يموت ولكن الكابتان ميشيل يكلف رسول أبيه أن يعتذر اليه بأنه محارب وأن يطلب اليه الدعاء له ويسمع الشيخ رسالة ابنه فيبتهج بها ويبارك عليه ويقبل عليه ابن أخ له قضى حياته فى أوروبا مبغضا للحرب مؤثرا للسلم يقبل عليه وقد كلف من أثينا ومن الأسقف أن يلح عليه فى وضع السلاح فيقنعه بايثار السلم فاذا رآه لم يحفل به دائما نصح له بأن يعود من حيث أتى لأنه ليس صاحب حرب . ولكن الفتى يرى عمه فى هذه القلة القليلة من الناس الذين يساقطون من حوله وأمام هذه الكثرة الكثيرة من الترك الظمأى الى دمه فيأبى

العودة ويأخذ السلاح ويقبله عمه مباركا عليه . وقد شد الترك على الكابتان ومن معـــه فأحاطوا بهم وجعلوا يصرعونهم وكلهم يسقط صائحا : الحرية أو الموت .

والكابتان يفتك بهم فتكا ذريعا ولكنه يفتح فمه صائحا بهذا الشعار فلا ينطق منه الا بكلمة الحرية ولا يحتاج الى أن ينطق بكلمة الموت لأن رصاصة نفـــذت بين شفتيه فملأت فمه وقلبه وجسمه موتا .

ولم أعرض عليك من هذه القصة الا أيسر اليسير منها ولو قد أردت تلخيصها كما ينبغى أن تلخص لضاق بها هذا العدد كله من الجمهورية . والذى تركته منها أبلغ وأروع من الذى لخصته ، فيه علم غزير بالحياة الاجتماعية والدينية لليـــونان والترك فى تلك الجزيرة وفيه وصف دقيق متقن للأفراد والجمـــاعات والبحـــر والجبل والحقول والسماء وشمسها الساطعة فى النهار ونجومها المتلألئة فى الليل وفيه ألوان رائعة من الأساطير وأحاديث الناس . ومهما أنس فلن أنسى موت ذلك الشيخ أبى الكابتان ميخالى بعد أن بلغ المائة وأبلى فى الجهاد واستكثر من المال والولد وعلم أبناءه وأحفاده الجهاد والموت . ثم أخذ يتعلم فى آخر أيامه من حفيد له صبى كتابة الأحرف اليونانية حتى اذا أتقنها وعرف كيف يكتب هذا الشعار جعل يطوف فى القرية ويكتب على كل دار من دورها

وعلى المسجد والكنيسة هذه الكلمات : الحرية أو الموت . ثم يرسل الى أترابه الشيوخ الذين أبلوا مثله فى حرب الترك حتى اجتمعوا حوله . أمر فمدت لهم الموائد وطعموا حتى أسرفوا فى الطعام وشربوا حتى أسرفوا فى الشراب ثم دعاهم اليه فأحاطوا بفراشه فى صحن الدار وفى ظل شجرة من شجرات الليمون فلما أطافوا به أنبأهم بأن الموت مسرع اليه وبأنه يريد أن يعلم حقيقة يلقى بها الموت . فلما سألوه عن هذه الحقيقة قال لهم أريد أن أعلم من أين جئنا والى أين نمضى ! وحار الشيوخ فى هذا السؤال وتكلموا فأكثروا ولكنهم لم يبلغوا مما أراد شيئا . ولكن أحدهم وهو المعلم الشيخ أخذ قيثارته وجعل يعزف عليها . واذا الموسيقى تملك على الشيخ المحتضر أمره وتلهيه عن الحياة والموت جميعا واذا نفسه تفيض فى دعة وأمن وسلام .

قلت فى أول هذا الحديث ان القصة أروع ما قرأت فى العام كله وأقول فى آخر هذا الحديث انى أتمنى أن أرى هذه القصة مترجمة الى العربية ليقرأها كل الذين يستطيعون أن يقرأوها وليست ترجمتها عسيرة ففى مصر قلة يحسنون اليونانية الحديثة ويستطيعون أن يترجموا عنها فى دقة وصدق واتقان . فليتهم يفعلون .

تناقض

كان مؤتمر المجامع العربية منعقدا فى دمشق أثناء الأسبوع الماضى .. وكان أعضاؤه على اختلاف أقطارهم غارقين الى آذانهم فى حديث اللغة العربية ، يجادلون فى نحوها واملائها وآدابها وعلومها مجتمعين ، ويخوضون فى أحاديث هذا كله حين ينفض اجتماعهم .. ويلتقون فى المآدب والحفلات ، وما أكثر المآدب والحفلات التى أقيمت لهذا المؤتمر فى دمشق .

وأقيمت على كرم قوامه الحب الخالص والود الصادق والاخاء المتين بين هذه الشعوب التى تأتلف منها الأمة العربية على اختلاف أقطارها وعلى اختلاف أوضاعها أيضا .

كنا اذن غارقين فى حديث اللغة العربية . وكان أحدنا لا يكاد يخلو الى نفسه — وما أقل ما كان أحدنا يخلو الى نفسه — الا فكر فيما سمع وفيما قال ، وقدر ما سيسمع فى غده وما سيقول.

وكان أظهر ما لاحظناه أثناء اقامتنا فى هذه العاصمة العربية الحبيبة الى النفوس بحاضر أمرها كله وماضيه أن المثقفين من أهلها لا يحرصون على شيء كما يحرصون على وحدة الأمة

العربية . ولا يكلفون بشيء كما يكلفون باللغة العربية الفصحى ، يتقنون العلم بها ويتقنون اتخاذها لغة للخطابة والمحاضرة واتخاذها لغة للحديث والحوار . ولا ينحرفون عن ذلك الا حين يتبسطون فى أحاديثهم ويعمدون الى الفكاهة والدعابة . فاذا أخذوا فى الجد من الأمر عادوا الى لغتهم العربية صافية كأحسن ما يكون الصفاء . نقية كأرق ما يكون النقاء .

وهم لايحسنون الحديث والمحاضرة والخطابة وحدها فى هذه اللغة الفصحى .. ولكنهم يحسنون الحفظ والرواية لما قيل فى الماضى ولما يقال فى هذه الأيام أيضا . قد وثقوا صلتهم بهذه اللغة العربية الفصحى وآدابها توثيقا غريبا . فهم يروون للحديث القدماء فى شعرهم ونثرهم ومحاوراتهم ومحاضراتهم . وهميروون لك الكثير من آثار المحدثين فى وطنهم وفى الأوطان العربية الأخرى . قد حفظوا ذلك حفظا جيدا كأنهم وقفوا أنفسهم عليه ولم يحاولوا غيره من شئون الحياة .

أثناء هذا كله وصلت الينا الجمهورية وقرأنا فيها حديثا عجبا ينسب الى عضو من أعضاء المجمع اللغوى المصرى الذى كان يمثله فى ذلك المؤتمر أربعة من أعضائه . وفى هذا الحديث مطالبة بالغاء النحو العربى والانصراف عن الاعراب فى

أواخر الكلمات والاكتفاء بتسكين أواخر الكلمات هذه ، ايثارا للراحة والعافية ورغبة فى تيسير الاتصال بين الأدباء والشعب .

ولا أحدثك عن وقع هـذا الرأى فى نفـوس المثقفين من السوريين وغيرهم من أعضـاء المؤتمر . فأنت تستطيع أن تقـدر هذا الوقع ، وأن تتصور هـذا الفرق الخطير بين حرص اخواننا السوريين واخواننا من العرب عامة على صفاء اللغة العربيـة ونقائها . واستخفافنا نحن بذلك وزهدنا فيه وامعاننـا فى أن نصرف الناس عنـه ونغريهم بالتخفف منه .. أو الترفع عنه ان شئت .

واستخفافنا بأمر اللغة الفصحى وضيقنا بنحوها وقديمها ،كله شائع مألوف قد عرفناه فى هذه الأيام خاصة وتحدثنا فيه فأكثرنا الحديث . ولكنى أعترف بأنه لم يؤذنى قط كما أذانى حين كنت فى دمشق بين هؤلاء الناس ، لا يضيقون بشىء كما يضيقون بأيسر التفريط وأهون التقصير فى ذات الوحدة العربية وفى ذات اللغـة العربية خاصة ، لأنهم يرون هذه اللغة قوام هـذه الوحدة التى تطمح اليها الشعوب العربية كلها وتجاهد فى سبيلها أعنف الجهاد وأقواه ، وتتهيأ لاحتمال ما قد يفرض عليها هذا الجهاد من الأثقال والأعباء والتضحيات .

وأغرب ما يلاحظ هؤلاء الاخوان من العـرب ، وما ألاحظ

معهم ، أن فى مصر كتابا وأدباء يناقضون أنفسهم أشد المناقضة . ويناقضون حكومتهم أشد المناقضة أيضا ،بل يناقضون دستورهم مناقضة أقل ما تدل عليه هو أنهم لا يحفلون بشيء ولا يرجون لشيء وقارا . فهم يدعون الى الوحدة العربية ويلحون فى الدعوة اليها . وحكومتهم تدعو الى هذه الوحدة وتجد فى العمل لها ، وفى ابتغاء الوسيلة اليها ، وتبذل فى ذلك جهودا صادقة موفقة .

ودستورهم يعلن أن مصر جزء من الوطن العربى ، وأن اللغة العربية هى لغتها الرسمية . اذ هم بعد ذلك ، وعلى رغم ذلك يستخفون باللغة ويريدون أن يتخلصوا منها ، ولا يتردد بعضهم فى أن ينصرف عنها الى اللغة العامية ، مجاهرا بذلك لا يستخفى به ويتحفظ فيه ، ولا يتردد بعضهم الآخر فى أن يطالب بالغاء النحو أو فى أن يطالب بالغاء الاعراب وتسكين الكلمات مع أنه عضو فى المجمع اللغوى المصرى ، ومع أن قبوله لعضوية هذا المجمع يلزمه العمل بقانونه ، ويلزمه تبعا لذلك أن يحافظ على سلامة اللغة العربية الفصحى وصيانتها من العبث والفساد .

هذا التناقض الذى يتورط فيه كتابنا وأدباؤنا ، ولا يجدون فيه حرجا أو جناحا ، ظاهرة خطيرة حقا تدل أول ما تدل على أننا قد دفعنا الى لون من التهاون فى التفكير والتدبر والحكم على الأشياء والسيرة فى الحياة العامة والخاصة أيضا .

فأيسر ما يجب على الرجل العاقل لنفسه ولوطنه ولمواطنيه أن يحرص على أن يكون تفكيره مستقيما ما وسعه الحرص ، وأن يلائم بين تفكيره الذى يخلو به الى نفسه ورأيه الذى يعلنه الى الناس وسيرته التى يسيرها بين الناس .

انهم وهم يدعون الى الوحدة العربية صادقين لا ينبغى أن يهدموها فى نفس الوقت الذى يدعون اليهـا فيه - وأى هـدم للوحدة العربية أعظم خطرا وأعمق أثرا وأسوأ عاقبة من اضعاف اللغة التى تجمع بين العرب والاستخفاف بها أو الانصراف عنها . ومن الدعوة الى ألا تكون لهذه الأمة العربية لغة جامعة توحـد تفكيرها وتتيح لشعوبها المختلفة أن يفهم بعضها عن بعض ، وأن يقرأ بعضها آثار بعض قراءة مباشرة لا تحتاج الى نقل ولا الى ترجمة ، وأن يتحدث ساستها وأدباؤها وعلماؤها فلا يحتاجون الى أن يقوم بينهم المترجمون ينقلون الى بعضهم أحاديث بعض .

فالغاء النحو أو الغـاء الاعراب وارسال الكلام ارسالا فى غير رعاية لقاعدة ولا تحفظ من خطأ ، لا نتيجة له الا أن يصبح المصريون والسوريون والسعوديون وغيرهم من الشعوب العربية كالفرنسيين والايطـاليين والأسـبانيين قـد نشـأت لغـاتهم المختلفـة عـن لغـة قديمـة مـاتت وقـامت مقـامهـا هـذه اللغـات الحديثـة فتفـرقت الأهـواء والآراء وذهب كل

شعب مذهبه فى الحياة وأصبح ساسة هذه الشعوب وعلماؤها وأدباؤها لا يلتقون الا احتاجوا الى التراجم وأصبحت كتب هذه الشعوب لا يمكن تبادلها الا عن طريق الترجمة ، وأصبحت لغاتها المختلفة تدرس فى المدارس ليتهيأ المترجمون والناقلون . وليظهر بعضهم على ثقافة بعض بواسطة الترجمة والنقل .

وينبغى أن يتصور القارىء هذا العبء المبهظ الثقيل الذى سنضطر تلاميذنا من الأجيال المقبلة الى النهوض به ، فلن نعلمهم اللغة العربية واللغات الأوروبية الكبرى فحسب . ولكننا سنضطر الى أن نعلمهم لغات جديدة لا عهد للعالم بها الى الآن ، وهى هذه اللغات التى ستمتاز حين يصبح لكل وطن عربى لغته الخاصة .

وسيصير أمر الدين نفسه بالقياس الى المسلمين من العرب الى مثل ما صار اليه أمر الدين المسيحى بالقياس الى الأمم اللاتينية .

سيقرأ القرآن فى غير فهم الا أن يترجم الى قارئيه فى لغاتهم الخاصة وسيصلى المسلمون من العرب بقرآن لا يفهمون منه شيئا كلما بعد العهد باللغة الفصحى ، وستصير الوحدة العربية التى نطلبها ونجد فى سبيلها الى أن تصبح وهما من الأوهام لا سبيل الى أن يحققه العقل ، فضلا عن أن يتحقق فى الحياة الواقعة .

كل هذا لسبب يسير ، هو أن طائفة من كتابنا وأدبائنا لا يأخذون الأمور مأخذ الجد . وانما يعيشون كما يستطيعون ،

مستخفين بكل شيء ، غير حافلين بهـذا التناقض الخطـير بين ما يقولون وما يفعلون ، وغير حافلين بأنهم يريدون بناء الوحـدة العربية ويريدون فى الوقت نفسه هدم هذه الوحدة ، واقامـة المصاعب والعقبات التى تجعل تحقيقها أمرا محالا .

وفيم يطالب المطالبون بالغاء نحو هذه اللغة العربية ، لأنهم لم يتعلموها فى المدارس أثناء الصبا والشباب كما كان يجب أن يتعلموها .

واذا كان الجهل بشيء من الأشياء يكفى للمطالبة بالغائه . فما يمنعنا بأن نطالب بالغـاء أكثر العلوم لأن أدباءنا لا يعرفونهـا ولا يستطيعون التصرف فيها .. واذا كانت صعوبة شيء تغرينـا بالانصراف عنه والزهد فيه ، فما أسخف الذين يضيعون أوقاتهم ويهدرون جهودهمويكلفون أنفسهم ألوان المشقةوالعناء للنهوض بعظائم الأمور وجلائل الأعمال .

وقد كنا نتعلم فيما مضى من الزمان أن الحياة جهاد ، وأنها ليست يسرا كلها ، وأن مطالب الحياة ليست قريبة ولا دانيـة القطوف . وانما هى عسيرة بعيدة ، يجب السعى اليها والجـد فى طلبها واحتمال المشقة فى تحصيلها . فأصبحنا الآن نطمئن الى الدعة والراحة ونتنظر أن تساق الينـا حاجاتنـا ونحن وادعون لا نتكلف فى سبيلها جهدا ولا عناء .

ولست أعرف شيئا يلقى من الظلم مثل اللغة العربية . يجهلها قوم فيعرضون عنها ويدعون الى الغائها ، ويجهلها قوم آخرون فيعسرون أمرها أشد التعسير ويلحون فى المحافظة عليها كما تركها القدماء لا يبيحون فيها تجديدا ولا يسمحون لها بالتطور ، وانما يفرضون عليها جمودا لايفهمونه ولا يقدرون عواقبه . وجدوا آباءهم على أمة فهم على آثارهم مقتدون . شأنهم فى ذلك شأن الجاهلية العربية الأولى التى كانت تكره الانحراف عن أوثانها .

وكذلك تضيع اللغة العربية ، وتضيع الوحدة العربية أيضا ، ويضيع التراث العربى كله بين المسرفين فى المحافظة ، والمسرفين فى التجديد . والناس جميعا يقولون ان خير الأمور أوساطها ، ولكن ما أكثر ما يقال وما أقل الفهم لما يقال .

وبين غلو المحافظين والمجددين طريق وسطى تحفظ على اللغة العربية حياتها أولا وصفاءها ونقاءها ثانيا ، وتهيىء للأمة العربية وحدتها المرجوة . وهذه الطريق الوسطى هى طريق التيسير . ولكن حديث هذا التيسير يطول فلنعد اليه فى حديث آخر . ومن يدرى لعله لا يبلغ قلوب الغلاة من المحافظين والمجددين جميعا . فقد اتبع أولئك وهؤلاء أهواءهم . ولم يخطىء الشاعر القديم حين قال :

اذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى
الى بعض ما فيه عليك سبيل

بين القصرين

قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ

فقد أتيح له فى هذه القصة الرائعة البارعة نجاح ما أرى أنه أتيح له مثله منذ أخذ المصريون ينشئون القصص فى أول هذا القرن .

ولكن الأدب المعاصر كغيره من الآداب على اختلاف عصورها وكغيره من الانتاج العقلى . شيء نفهمه نحن ولا يفهمنا ، ونقدره نحن ولا يقدرنا ونشعر نحن بما يتاح له من نجح وما يفرض عليه من اخفاق ولا يشعر هو برضانا عنه أو سخطنا عليه .

فلأقدم تهنئتى اذن كأصدق وأعمق ما تكون التهنئة الى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ ولأقدمها اليه بلا تحفظ ولا تحرج فهو جدير بها حقا لأنه أتاح للقصة أن تبلغ من الاتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذى يشبه السحر ما لم يتحه لها كاتب مصرى قبله .

وما أشك فى أن قصته هذه « بين القصرين » تثبت للموازنة مع ما شئت من كتاب القصص العالميين فى أى لغة من اللغات التى يقرأها الناس .

وما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها منذ تبدأ الى أن تنتهي فلا تحس بها ضعفا ولا تشعر فيها بفتور في أي موقف من مواقفها ولا تثير فيك احساسا بأن الكاتب على اطالته قد أدركه شيء من الاعياء أو أصابه شيء من التراخي أو ناله ما ينال الكتاب المطولين من هذا الجهد الذي يدعو الى شيء من الراحة والتنفس في ذلك .

بل ما رأيك في قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها أنت فلا تشعر في أي وقت من أوقات القراءة بالحاجة الى أن تستريح منها الى غيرها من الكتب أو تستريح من القراءة الى غيرها من ألوان العمل وانما يتجدد نشاطك الى المضي في قراءتها دون أن يجد الملل أو السأم أو الضعف أو الفتور الى نفسك سبيلا . وأنت جدير أن تأخذ في قراءتها فلا تدعها حتى تتمها لولا أن ظروف الحياة تحول بينك وبين ما يجب من ذلك وتضطرك الى الوقوف لتأتي عملا لا تستطيع تأجيله أو تقرأ شيئا لا سبيل الى ارجاء قراءته .

ثم أنت لا تكاد تفرغ من هذا العمل الذي صرفك عنها حتى تعود اليها مدفوعا الى هذه العودة دفعا لا تستطيع مقاومته ولا الامتناع عليه .

بل أنت لا تفرغ من هذه القصة لتنصرف عنها الى غيرها من

فنون القراءة وألوان العمل وانما أنت مضطر الى أن تفكر فيها تفكيرا طويلا متصلا وربما أخذت فيما يجب أن تأخذ فيه من أعمالك وقراءاتك واضطربت فيما يجب أن تضطرب فيه من شئون الحياة ولكنك ترى نفسك بين حين وحين مضطرا الى أن تعود الى التفكير فيها والاعجاب بها والثناء عليها بينك وبين نفسك والتحدث عنها الى الناس حين تلقى الناس .

تقف بعقلك وقلبك عند هذا الموطن من مواطنها أو هذه الصورة من صورها فلا تكاد تتحول عنه الا لتقفه عند موطن آخر أو صورة أخرى .

وقد يمضى الوقت الطويل بعد فراغك من قراءتها واذا أنت على ذلك تعود اليها فترى أنك لم تنس منها شيئا لأن قراءتك الأولى لها قد ثبتت أحداثها وصورها وأحاديثها فى نفسك تثبيتا .

بهذا كله شعرت أنا وبهذا كله شعر غيرى من القلة الذين لقيتهم وتحدثت اليهم عنها فاذا هم قد قرأوها وتأثروا بها كما تأثرت وقدروها كما قدرتها وأحسوا من روعتها مثل ما أحسست وألحت على عقولهم وقلوبهم كما ألحت على عقلى وقلبى .

ومصدر هذا كله فيما أرى أن الكاتب يحقق فى هذه القصة تحقيقا رائعا خصلتين يبلغ بهما الأثر الأدبى أقصى ما يقدر له من النجح وهما الوحدة التى لا تغيب عنك لحظة والتنوع الذى يذود

عنك السأم ويخيل اليك أنك تحيا حيـاة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والأحداث .

فأنت تتنقل فى كل هذه المظاهر والمناظر والأحداث لا كما يتنقل المتنزه فى بستان يختلف فيه الزهر والثمر والشجر بل كما يتنقل الانسان فى حياة مضطربة لا يمر يوم من أيامها أو ساعة من ساعاتها الا لقيه فيها حدث من الأحداث يرضيه أحيانا ويسخطه أحيانا يثيره مرة ويرده الى الهدوء مرة أخرى .

والقصة اجتماعية بأدق معانى هذه الكلمة لأنها تصور بيئة مصرية معينة فى عصر بعينه من عصور هذا القرن تصور بيئةرجالها من التجار المترفين فى الأحياء القديمة من القاهرة وفى أثناء الحرب العالمية الأولى وأعقابها ونساؤها من المحصنات الغافلات المحجبات اللاتى لم يبلغن التطور الحديث بعد فلبثن محتفظات بعادات القرن الماضى فى البيئات المصرية الخالصة وشبابها مختلفون يمتازون بما يمتاز به الشباب فى عصر من عصور الانتقال ، منهم الجـاد الذى لم يدركه خمود ولا خمول فهو طامع الى أن يتعلم ويبلغ من التعليم أرقاما كانت تتاح للشباب فى ذلك العصر . ومنهم الكسل الذى لايتجاوز الشهادة الابتدائية ويقنع بعمل كتابى فى مدرسة النحاسين، وصبيتها من هؤلاء الذين عرفناهم أول القرن فى تلك الأحياء القديمة فى القاهرة يختلفون الى المدارس كارهين لها حراصا مع

ذلك عليها ويعبثون فى الطريق بينها وبين الدار ويتفكهون حين يتاح لهم ذلك بالوقوف عند بائع البسبوسة وتأتلف عقولهم الناشئة من هذه الأحاديث المختلطة المتناقضة التى يسمعون بعضها من معلميهم فى المدرسة ويسمعون بعضها الآخر من آمهاتهم اذا راحوا الى الدور.

ويؤلفون بين هذه المتناقضات مزاجا لا هو بالجديد الخالص ولا هو بالقديم الخالص وانما هو شيء بين ذلك يعجب ويروق. وبناتها معجبات غافلات أيضا يتحرصن مع ذلك من اختلاس النظر بين حين وحين من ثقوب المشربيات الى ما يجرى فى الشارع ومن يمر فيه من الشباب. والأسرة التى اتخذت محورا لهذه القصة تقيم فى ذلك الشارع القديم بين القصرين رئيسها تاجر من تجار الحى قد جاوز الشباب ولم يبلغ الشيخوخة بعد وهو أنيق مترف رائق المنظر والمظهر لا يكاد يخرج من داره حتى يكون صورة رائعة للترف والوقار أثناء النهار وصورة رائعة للعبث والمجون شطرا من الليل ولا يكاد يعود الى داره حتى يكون صورة مروعة للجد والصرامة والحزم والتحكم ما أقام فيها.

وهو قد ملأ الدار وأهلها اعجابا به وحبا له وخوفا منه يبلغ الذعر والهلع .. تحبه زوجه كل الحب وتفرق منه كل الفرق فهى خادم له تدعوه سيدها وتسهر منتظرة عودته وتضيء له طريقه الى

حجرته متى عاد . هى خادم ولكنها خادم عاشقة وبنـاته وأبناؤه يسلكون طريق أمهم فى الخوف والفرق والاعجاب والحب .

وله ابن من غير زوجته هذه خامد خامل وتعس بائس قنـع يعمل فى مدرسة النحاسين وقد طلقت أمه لسوء سيرتها وهو يعلم ذلك حق العلم ويشقى به أشد الشقاء .

وهو يسلك طريق أبيه لا فى الجد والنشـاط ولا فى الوقار والاحتشام بل فى العبث والمجون . وعلى هـذه الأسرة تختلف أحداث الحياة هادئة مطردة أثناء الحرب ثم عنيفة مضطربة حين تضع الحرب أوزارها وتشب الثورة وينفى سعد زغلول .

وقد قلت ان القصـة اجتماعية لأنها تصور هـذه الأسرة والبيئة التى تضطرب فيها وما يختلف عليها من صغار الأحداث وكبارها ما يحزن منها وما يسر ولكن القصـة وجها آخـر فهى تاريخية بأدق وأعمق وأوسع وأبرع معانى هـذه الكلمة فلست أعرف قاصا صور الثورة المصرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كما صورها الأستاذ نجيب محفوظ .

صورها حية كأقوى ماتكون الحياة وصورها متغلغلة فى أعماق الشعب على اختلاف طبقاته مستأثرة بالقلوب والألباب مؤثرة فى حياة العابثين والجادين جميعا وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما .

وصورها بما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم وجود الشيوخ بأموالهم وجود الأمهات والأخوات بأمانيهن ودعائهن .

وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم وغدرهم واستخفافهم بكل شيء وبكل انسان وبكل مكانة وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين .

صور هذا كله أروع تصوير وأبرعه وأقساه لا بالألفاظ الرائعة المنمقة بل بالأحداث التى تفطر القلوب وتمزق النفوس .

ولست أقف فى هذا الحديث عند ما فى القصة من هذه الصور الأخاذة الخلابة التى لا تحصى لأن هذا يطيل الحديث أكثر مما تتحمل الجمهورية بل أكثر مما تتحمل صحفنا السيارة فى هذه الأيام .

لا أقف عند صورها الهادئة التى تعجب وتروق ولا عند صورها المثيرة التى تملأ النفوس حزنا وجزعا أحيانا وتملأها ايمانا وأملا أحيانا أخرى وتملؤها ثقة بمصر دائما ، لأنى ان حاولت ذلك لن أفرغ منه وانما أعيد ما قلته فى أول هذا الحديث من أن هذه القصة هى أروع ما قرأت من القصص المصرى منذ أخذ المصريون يكتبون القصص ومن أنها تثبت للموازنة مع ما شئت من القصص فى أى لغة من اللغات التى يقرأها الناس وأضيف الى ذلك أن روعة القصة لا تأتى من هذه الخصال التى أشرت اليها آنفا فحسب ،

وانما تأتى من لغتها أيضا فهى لم تكتب فى اللغة العامية المبتذلةولم تكتب فى اللغة الفصحى القديمة التى يشق فهمها على أوساط الناس وانما كتبت فى لغة وسطى يفهمها كل قارىء لها مهما يكن حظه من الثقافة ويفهمها الأميون ان قرئت عليهم .

وهى مع ذلك لغة فصيحة نقية لا عوج فيها ولا فساد .

وقد تجرى فيها الجملة العامية أحيانا حين لا يكون منهـا بد فيحسن موقعها وتبلغ منك موقع الرضى .

● وأكبر الظن أن الأستاذ نجيب محفوظ قد وفى للجامعـة التى تخرج فيها أصدق الوفاء وأقومه .

● وفى لها بالعمل الصادق المنتج فأثبت أنها لم توجد عبثـا وأنها لم تخرج العلماء فحسب وانما أخرجت معهم الأدباء البارعين أيضا وأخرجت معهم أبرع القصاص المصريين كذلك .

● وكل شخصية فى هذه دليل واضح قاطع على أن الأستاذ نجيب محفوظ قد انتفع بمـا سمع فى كلية الآداب مـن دروس الفلسفة . لم يصبح فيلسوفا ولا مؤرخا للمذاهب الفلسفية وانما أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها . قادرا على أن يضع يد قارئه على أسرارها ودقائقها .

وحسبك بهذا كله نجحا للجامعـة ونجحا لخريجـها نجيب محفوظ .

دموع ابليس

ولم لا يبكى ابليس ! فالكاتب الأديب لا يعجزه أن يضحك الشياطين وأن يبكيهم ، ويفعل بهم الأفاعيل وهو قادر كذلك على أن يضحك الملائكة وأن يبكيهم ويجرى عليهم ما يشاء من الأحداث وما أكثر ما استباح الأدباء لأنفسهم العبث بالملائكة والشياطين جميعا وان كان كتابنا من العرب قد تحرجوا من أن يفعلوا بالملائكة مثل ما يفعلون بالشياطين لأن للملائكة شيئا من التقديس يعصمهم فى بيئاتنا من عبث الخيال .

أما الشياطين فقد تقدم الله عز وجل الينا فى أن نبغضهم ونبرأ منهم ونستعيذ من شرهم ونلعنهم ان جال خاطرهم برؤوسنا أو جرى ذكرهم على ألسنتنا وهم يعبثون بالناس فما يمنع الناس أن يعبثوا بهم والأدباء من الشعراء والكتاب أقدر الناس على هذا العبث بهم يعينهم على ذلك خيالهم القوى النفاذ وما أتيح لهم من قدرة على تصريف الكلام ومن قوة على أن يذهبوا به كل مذهب.. فهم يصورون الشياطين جادين حينا وعابثين أحيانا يتخذون تصويرهم سبيلا الى الموعظة والعبرة ويتخذون تصويرهم سبيلا

الى التلهية والفكاهة والأدب الشعبى بارع فى العبث بالشياطين وفى العبث بالجن على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم . وأيسر القراءة فى هذا القصص يبين لك عن سبق هذا الأدب الشعبى الى تسخير الجن لحاجة الانسان يأخذ ذلك مأخذ الجد حينا ومأخذ اللهو أحيانا . وقلما تخلو قصة من قصصنا الشعبية من أخبار الشياطين والجن على وجه عام .

ومن المعروف أن الأدب الشعبى قد جعل للعشق بين الجن والانس سبيلا ، فما أكثر ما يحب رجـال الجن ونساؤهم رجال الانس ونساءهم وربما أحب الانسان جنيـة وتجشم فى سبيلها الأهوال كما نرى فى قصة حسن البصرى من قصص الف ليلةوليلة وقد استقر فى نفوس العامة أن الحجاب قد يرفع بين الانس والجن أو بين أفراد من أولئك الجن وهؤلاء . وما أكثر ما كان العرب القدماء يتحدثون عن أولئك الجن الذين كانوا يتصلون بالكهان من رجال الانس ونسائهم فيتحدثون اليهم بأنباء الغيب . وقـد عنيت الآداب الأوروبية بالجن أكثر مما عنى بهم أدبنا العربى.فكثر انتاج الأدب الرفيع فى اللغات الأوربية المختلفة عما يكون بين الجن وبعض الناس من صلات ولست فى حاجة الى أن أتحدث عن أسطورة فوست التى ألهمت نفرا من أدباء الانجليز والألمانيين

أدبا ممتازا والتى انتهت الى هذه الآية العالمية المعروفة من آيات الشاعر العظيم جوته . والتى لم تقف عند الانتاج الأدبى وحده ولكنها تجاوزته الى الموسيقى فأحدثت فيه آيات رائعة . ومنذ عرف النـــاس من الديانات السماوية أمر الشيطان وما كان من معصيته لله وطرده من جنته تأثروا بهذا الشيطان فى آدابهم وفنونهم على اختلافها . وأثر الشياطين فى انتاج المصورين والمثالين خاصة أظهر وأشهر من أن نحتاج الى ذكره أو الخوض فيه .

وآخر ما قرأته من الأدب الرفيع المتصل بالشيطان فى الانتاج الأوروبى كتاب غريب ألفه الكاتب الايطالى المعروف الذى توفى منذ وقت قريب وهو يابينى وهو كتاب أشبه بالدراسة الدينية منه بالأدب الخالص . درس فيه الكاتب رأى الأمم المختلفة فى الشيطان وتصـــوير الديانات كلها له وحكمها عليه ثم انتهت به دراســـته الطويلة المتعة الى أن الشيطان سيظفر بمعزة الله له ورضاه عنه . وقد حظرت الكنيسة بالطبع على المؤمنين من الكاثوليك قراءة هذا الكتاب ولكن الناس على ذلك قرأوه وأكثروا القول فيه . وقد عنى أدباؤنا المحدثون بالشيطان فصوروه صورا مختلفة فيها الجد وفيها العبث .

والغريب أن توبة الشيطان وطموحه الى مغفـرة الله ألحت

على بعض كتابنا فى نفس الوقت الذى ألحت فيـــه على الكاتب الايطالى الذى أشرت اليه آنفا .

فالأستاذ سعيد العريان يصور طموحه الى التوبة وعجزه عنها بأن امرأة غلبته على أمره والأستاذ توفيق الحكيم يصور الشيطان طامعا فى التوبة ملحا فيها مبتغيا اليها الوسائل ولكن أئمة الديانات السماوية يأبونها عليه لأنهم لا يملكون قبولها منه وهو يرقى الى السماء فيرد عنها لأن القضاء قد سبق بأن مكانه ليس فيها وذلك فى قصة الشهيد والأستاذ تيمور يصور مكره ودهاءه وعجزه مع ذلك عن أن يتفوق على الانسان فى بعض الأحوال وذلك فى قصة أشطر من ابليس أما الأستاذ فتحى رضوان فانه لا يفكر فى شيء من هذا ولا يسلك سبيله الى شيء يشبهه وانما يجرى على الشيطان ما يجرى على الانسان من أحداث الحيـــاة ويجعله بطلا للصراع بين الخير والشر وبين الفضيلة والرذيلة . وأنت تقرأ القصـــة فلا تجد فيها رمزا ولا ايماء وانما تجد فيها تصريحـــا واضحـــا كل الوضوح منذ تبدأ القصة الى أن تفرغ منـــها فالأشـــياء مسماة بأسمائها والأشخاص مسمون بأسمائهم والأحداث تقع فى أرض يسكنها الناس ويشقون فيها ويسعدون ويحسنون فيها ويسيئون. وأنت تستطيع أن تضع هذه الأرض حيث شئت من بلاد الله . تستطيع أن تتخيلها فى مصر لأن الأسماء أمامك كلها عربية ولأن

البيئة تشبه بيئاتنا المصرية فى القرى وتستطيع أن تتخيلها فى بلد آخر لأن الشقاء والسعادة والغنى والفقر والنعيم والبؤس كل ذلك يعرض للناس حيث يكونون . ومع ذلك فأنت تشعر أثنـــاء القراءة بأن أحداث القصة تقع فى عالم آخر قريب من الأرض ولكنه بعيد عنها يوشك أن يكون فيها . لولا أن هؤلاء الأشخاص الذين يذهبــون ويجيئون ويختصمون ويتفقــون يحيط بهم شيء من الغرابة يدنيهم منك وينئيهم عنك فهم بين بين . وهذا أول مايرضيك عن هذه القصة لأنه يخرجك من الأطوار المألوفة للناس دون أن يبعدك عنهم فأنت حين تقرؤها توشك أن تكون فى شيء يشبه الحلم وان كان أدنى الى الحق منه الى الحلم . ولست أدرى كيف يكون موقع هذه القصة من النظـــارة المصرية لو عرضـــت عليهم ممثلة تمثيلا متقنا كل الاتقان . أيصبرون عليها أم يقصرون عن المضى معها الى آخرها .

ذلك أن القصة صـــارمة صرامة متصلة لا يكاد الضحك أو الفكاهة يلمان بها الا قليلا . وصرامتها تأتيها من أن كاتبها يفلسف كل شيء ويفلسف كل كلمة من كلماتها فموضوعها نفسه فلسفى وهو الصراع بين الخير والشر فى حياة الانسان والشيطان جميعا . وحوارها فلسفى منذ يبدأ الى أن ينتهى لا يعرض لما يعرض للطبيعة

ولا لفلسفة العلم ولا يبعد عن الناس ولكنه قريب منهم عسير عليهم فهو تحليل دقيق صادق فيه كثير من الروعة ولكن من هذه الروعة الصارمة التي لاتحب لعبا ولا تندرا فيه تحليل دقيق صادق رائع لأعمال الناس وأخلاقهم وما يجول فى نفوسهم من خواطر وما يضطرب فى قلوبهم من عواطف . وفى هؤلاء الأشخاص سادة وخدم وفيهم أغنياء وفقراء وفيهم مثقفون وجاهلون ولكنهم على ذلك يفهم بعضهم عن بعض وكلهم يتكلم بالحكمة حتى حين يعبث وهم متساوون فيما بينهم لا يمتاز بعضهم من بعض الا بهذه الأعراض التى تفرق بين السعيد والشقى . والحب هو الموضوع الذى يقف عنده الكاتب فيحلله أدق تحليل وأعمقه ويخلع عليه أخص صفاته وأقواها وهى أنه يتسلط على القلوب جميعا . قلوب الأغنياء والفقراء والقادرين والعاجزين والآملين واليائسين بل يتسلط على الانسان والشيطان يشقى كليهما غالبا ويسعد كليهما أحيانا ويورط كليهما فى الاثم حين يريد ويرفع كليهما الى الايثار حين يريد أيضا . والبر يأتى بعد الحب فى المنزلة فهو ماثل أمامك فى القصة منذ تبدأ الى أن تنتهى .

هذه فتاة حسناء بارعة الجمال ، جمال الجسم وجمال النفس أيضا ، لا يراها أحد الا فتن بجمالها الرائع للنظرة الأولى ، وهى خيرة أو أقل انها الخير الخالص لا يصدر عنها الا الاحسان فى كل

ما تعمل وكل ما تقول . هى ملك من السماء أهبط الى الأرض ليملأها برا وعطفا واحسانا . وهى تحب الناس جميعا وتريد أن تبرهم جميعا وتبلغ من ذلك شيئا كثيرا وقد أحبها شخص فى دارها يشبه الخادم ولكنه لا يكاد يتحدث الى سادته حديث الخدم الى السادة ، بل هو يتحدث اليهم كأنه أحدهم وربما خافوا منه وأشفقوا من جده المر وفكاهته اللاذعة وهو ترب هذه الفتاة قد ولد فى نفس اليوم الذى ولدت فيه ودرج معها وشاركها فى اللعب أثناء الصبى وقد أحبها حين تقدمت بهما السن ولكنه كتم حبه كما يفعل اليائس . وأين هو منها وأين هى منه . وقد أقبل الى هذه القرية ذات يوم شاب كريم وسيم لم يكد يلم بها حتى أحبه الناس ومالت قلوبهم اليه وهو ظاهر التقوى عرف الناس منه ذلك فسموه ولى الله .

وهذا الشاب قد رأى الفتاة فأحبها ولكنها ممتنعةعليه تنازعها نفسها الى أن تستجيب له لولا أنها تؤثر الخير والطهر والنقاء فهى أشبه بالقديسات منها بأمثالها من الفتيات ولكن الشاب يلم بالدار ذات صباح ويخلو الى الفتاة فيفتنها عن نفسها وعن البر بالناس والاحسان اليهم وعن الطهر والنقاء جميعا . واذا هى تستسلم له ساعة من نهار أو ساعة من ليل . ولا تكاد تثوب الى نفسها بعد ذلك حتى يأخذها ندم عنيف يصرفها عن هذا الشاب

صرفا ويشغلها مع ذلك عما ألفت وألف الناس من برها بهم ورعايتها لهم فهى تنفق حياتها فى ذهول متصل حتى أنكرها أبوها وأنكرها أهل الدار وفطن الخادم الذى أشرت اليه آنفا لأمرها فأزمع قتل هذا الشاب :

وليس هذا الشاب الا ابليس نفسه قد أقبل على هذه القرية ضيقا باحسان هذه الفتاة فى أكبر الظن مزمعا أن يصرفها عنه . فلم يكد يراها من قريب حتى ملكت عليه أمره فأحبها وكان بينهما ما كان ، ...

وهو الآن يرى ندم هذه الفتاة بعد كبوتهـا فيـألم له ثم يشاركها فى الندم ثم يسيطر الندم عليه فيأتى اليها تائبا مستغفرا ملتمسا منها العفو والرضى ولكنها تزجره وترده أعنف الرد وتنبئه بأنها حامل وبأنها لن تعيش بعد هذه الخطيئة فيجثو أمامها متوسلا فاذا أبت عليه وأيأسته من العفو ذرف دموعه ندما وحسرة فبكى الشيطان لأول مرة .

ويمضى بعد ذلك عشرون عاما يتغير أثناءها كل شىء ونحن على شاطىء النهر حيث طائفة من الرعاة يسمعون لعازف منهم على الأرغول واذا شيخ ضرير مقبل يقوده شيخ مثله تقدمت به السن ولكنه مبصر فأما الشيخ الضرير الهرم فهو أبو تلك الفتاة وقد كنا نراه فى أول القصة رجلا قويا جلدا شديد النشاط فيه كثير من مرح

ودعابة وان كان قد مر بمحنة أذاقته مرارة الحزن اللاذع المضنى حين فقد زوجه . وهو الآن محطم منهار تعاونت عليه الأحداث والسنون وألح عليه الضر والأسى وأما الشيخ المبصر الذى يقوده فهو أحد خادميه اللذين كنا نراهما أول القصة مرحين فرحين يملآن الدار من حولهما مرحا وفرحا وفكاهة . والشيخ الضرير يقول لخادمه أظننا قد بلغنا الموضع ، يريد الموضع الذى ألقت منه ابنته نفسها فى النهر قد دله قلبه الممزق على هذا المكان من الشاطىء . وما أسرع ما نعلم أن ابنته تلك قد منحت الحياة منذ عشرين سنة طفلا تركته لخادمتها أم السعد ثم ألقت نفسها فى النهر متعجلة لقاء الموت حزنا وندما وبغضا لهذه الحياة التى امتحنت فيها بلقاء الشيطان . ونحن لا نعرف لابنها اسما ولكن الكاتب يسميه ابن الشيطان . وقد شب ابن الشيطان هذا حتى بلغ العشرين والغريب أنه لم يرث عن أبيه شيئا وانما ورث عن أمه كل شيء فهو مثلها نقى أشد النقاء مؤثر للخير ناشر للاحسان من حوله قد منح من رقة القلب ودقة الشعور وصفاء العقل وكمال الخلق ما لا عهد للشيطان بمثله كأنما هو ملك كأمه قد هبط الى هذه القرية ليملأها برا وحبا واحسانا .

والناس يألفونه كما كانوا يألفون أمه من قبل ولكنهم لا يعرفون له أبا ولا أما لأن مولده قد ظل سرا مكتوما لم يتجاوز

جده وأمه . وهو اذا أصبح غدا على القرية فواسى المحزون وانجد المكروب وأعان الناس على نوائب الدهر وجده حريص على أن يراه وعلى أن يتحدث اليه ويكاشفه بسره ويظهره من أمره ومن أمر أمه على كل شيء ولكن الشياطين من ناحية أخـرى ضائقون بهذا الفتى الذى سيطر بحبه على هذه القرية . فكف عنها شرهم وملأها برا وحنانا ومعروفا وهم يأتمرون به ويكيدون له ويريدون أن يخلصوا منه كما يريد الشياطين أن يخلصوا دائما من الاخيار الأبرار ولكنهم لا يقدرون عليه لأن كبيرهم يردهم عنه ويصـد عنه بأسهم وهم على ذلك يجدون فى المكر والحيلة ولا يتحرجون من أن يخالفوا عن أمر كبيرهم فى شيء من الاستخفاء عنـه ان أمكن الاستخفاء عن كبير الشياطين ، وهم يغرون به امرأة فاتنة لعوبا ممعنة فى الفتنة واللعب قد جربت اغراء الشباب والكهول واغواءهم وقد أقبلت هذه المرأة على الفتى من المدينـة تريد أن تصيده وتغويه كما أغوت أمثاله . ولكنها لا تكاد تراه وتعرف طرفا من أمره حتى يمسها طائف من النزوع الى التوبة والتكفير عن سيئاتها التى لا تحصى وهى مستيئسة من الرحمة ولكن الفتى يرد اليها الأمل واذا هى تخرج من الدنيا التى عرفتها وتريد أن تبرأ من آثامها فتلقى عنها كل وسائل الاغراء لا تبتغى الا أن تتبع هذا الفتى الخير وتعاونه على بعض ما يبذل من الجهد . ويشتد

بذلك ضيق الشياطين فيخلصون الى كبيرهم نجيا ويجرؤ بعضهم بعد تردد شديد على أن يباديه بالشكوى من احسان هذا الفتى وصدهم عن هؤلاء الناس من أهل القرية وعجزهم عن أن يبلغوا منه بعض مـا يريدون لأنه يشمله بحمايته ويخالف عن طبيعـة الشياطين وقوانينهم ، فيحمى الخير ويخلى بينه وبين نفوس الناس. وكبيرهم يفاوضهم ويستجيب لهم آخر الأمر لأنه حاول من قبل أن يعرف هـذا الفتى ويتقرب اليه . فلم يجد منه الا الاعراض الذى لقيه من أمه لا لأن الفتى أظهر له هذا الاعراض ، بل لأن قوة خفية ردته عن هـذا الفتى ردا . وقـد صرف ابليس شياطينـه واستبقى منهم واحدا فوض اليه التخلص من هذا الفتى بعد جهد أى جهد . وما أسرع ما يمضى هذا الشيطان الى غايته يتخذ الحقد وسيلة اليها يلم برجل بائس حاقد على الناس جميعا وعلى هذا الفتى الذى يحسن اليه كلما رآه فيغريه بالذهب يدفع اليه طائفة حسنة منه ويمنيه بمثلها ان قتل هذا الفتى . والرجل خائف متردد ولكن الشيطان يلح فى الاغراء ويهون عليه الأمر ويؤمنـه من عواقبه . وهذا هو البائس يمضى أمامه والشيطان يتبعه حتى اذا بلغ ذلك المكان الذى يخلو فيـه الفتى على شاطىء النهر وجده جالسا فى ظل شجرة كبيرة ينتظر بعض القادمين عليه ، أو قل ينتظر أن يقدم عليه القضاء فيلحقه بأمه . وهذا البائس يستدبر الفتى

ويطعنه فى ظهره فيصرعه ويمضى لوجهه ويقدم جده الشيخ فلا يرى حفيده حيا وانما يراه قد فارق الحياة دون أن يعرف من سر أمه شيئا .

ولا يكاد الشيخ وقائده يفــرغان لحزنهما حتى تقــدم تلك الحسناء التى تابت وآثرت سر الفتى على نعيم الدنيا ولهوها ، وهم يتناجون ولكن أهل القرية قد تسامعوا بالنبأ فأخذوا يهرعون من كل مكان ليشهدوا مصرع ابنهم وأخيهم ويأمر الشــيخ بأن يحمل القتيل ليعاد به الى الدار ، ثم يظهر كبير الشياطين باكيــا ممعنا فى البكاء ويظهر الشيطان الذى أغرى بقتل الفتى ، فاذا رأى كبير الشياطين منتحبا أخذه عجب أى عجب وهو يسأل رئيسه : أتبكى ؟!.. أهذه حقا دموع ؟!.. أتلك دموع ابليس .

فيجيبه ابليس : هذه أول دموع لابليس ... عرفها حينما عرف الحب .. ولكنه لن يعرف الحب بعد الآن .. ولن يرى النــاس لابليس دموعا بعد اليوم .

وكذلك تنتهى هذه القصة الممتعة التى لم ألخص لك منهــا الا أيسرها ولم أحاول أن أعرض عليك بعض ما فيها من هــذا الحوار الفلسفى القيم لأنى آثرت أن تخلو اليه ساعة من نهار أو ساعة من ليل كما خلوت أنا الى القصة فلم أنصرف عنهــا حتى أتممتها .

والقصة رائعة اللفظ قد كتبت فى لغة عربية رائقة لولا هنات تعترضك هنا وهناك ولكنها قليلة الخطر وان كنت أحب للكاتب أن يبرأ من أمثالها . وأنا بعد ذلك أهنىء الكاتب باتقانه وامتـاعه وما أشك فى أن قراءه سيشاركوننى فى هذه التهنئة وفى تهنئتـه بشىء آخر وهو أن أعباء الوزارة لم تحل بينه وبين هذه اللحظات الخصبة التى يسعد فيها الانسان بالخلوة بين حين وحين الى القلم والقرطاس .

كنز جديد

هو جديد لأننا كنا نقرأ عنه فى بعض الكتب ولا نعرف من ذخائره القيمة شيئا .

وقد أتيح له أن يظهر فى هذه الأيام ، وأصبح من اليسير أن نقرأه أو نقرأ فيه ونجد فى قراءته قلت أو كثرت طالت أو قصرت متاعا أى متاع .

وهو قديم لأنه كتب فى القرن الخامس للهجرة وفى القرن الحادى عشر للمسيح وهو من أجل ذلك كنز من أقدم الكنوز التى تركها لنا القدماء من علماء المسلمين .

والفضل فى اظهارنا عليه يرجع الى أستاذين كريمين من أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

أحدهما مصرى وهو الأستاذ يحيى الخشاب .

والآخر ايرانى وهو الأستاذ صادق نشأت .

والكتاب قد كتب فى اللغة الفارسية ففضل الأستاذين مضاعف فهما قد عرفاه للعالم العربى من جهة وترجماه الى اللغة العربية

من جهة أخرى ولأمر ما تذكر الترجمة فى هذه الأيام فلا يفهم منها المحدثون الا النقل عن الغرب الأوروبى والأمريكى وقلما يخطر لغير المتخصصين أن فى الآداب العالمية قديمها وحديثهـا آدابا أخرى لها خطرها العظيم وربما احتجنا اليها لنتم بها ثقافتنا العليا .

وفى اللغات الاسلامية غير العربية كتب قديمة وحديثة لهـا قيمتها ومـن الحـق علينا لأنفسنا أن نعرفها ما وجدنا الى ذلك سبيلا فللغرب الأوروبى والأمريكى خطره الذى لا معنى للنزاع فيه والنقل عن لغاته المختلفة ضرورة ملجئة من ضرورات الحيـاة الحديثة ولكن للشرق الاسلامى وغير الاسلامى خطـره العظيم أيضا . والنقل عنه واجب لتتم الثقافة ويحسن العلم بأحوال الأمم الشرقية على اختلافها وما ينبغى لأحـد العالمين أن يشغلنا عن أحدهما الآخر .

وقد كان قدماء المسلمين فيما يظهر أنفذ منا بصيرة وأحسن تقديرا للأشياء .

فهم حين أخذوا بأسباب الحضارة لم تبهرهم حضارة الغرب الأوروبى ولم تشغلهم عن الشرق القريب منهم والبعيـد عنهم فترجموا عن اليونان علومهم وفلسفتهم كما حاول أهل المغـرب الاسلامى أن يترجموا بعض التراث الذى تركه الرومان فى لغتهم اللاتينية وترجموا مع ذلك عن الفرس والهند واجتهـدوا فى أن

يعرفوا من أمور الصين ما أتيح لهم على عسر المواصلات فى تلك الأيام بين الشرق الأقصى ومواطن الترجمة فى العراق والشام بل قد حاولوا أن يترجموا عن اللغات السامية القديمة .

وكذلك ينبغى للذين يلتمسون العلم والثقافة أن يطلبوهما حيث يكونان فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب أو فيما بين ذلك من الأقطار .

والأوربيون سبقونا فى هذا العصر الحديث الى العلم بشئون الفرس والهند والشرق الأقصى .

ولم نحاول نحن شيئا من ذلك الا بعد أن أنشئت جامعة القاهرة وكلية الآداب فيها خاصة ودرست فيها بعض لغات الشرق والغرب واشتدت العناية باللغتين الفارسية والتركية أول الأمر ، ثم تجاوزتهما شيئا الى غيرهما من اللغات الاسلامية وان لم تصل بعد الى العناية بلغات الشرق الأقصى .

وبفضل هذه العناية بكلية الآداب أخذنا نعرف كثيرا من شئون الأمم الاسلامية غير العربية .

فترجم الدكتور عبد الوهاب عزام أشياء كثيرة قديمة وحديثة للفرس والهند وهو سابق هذا الجيل من علمائنا الذين اشتدت عنايتهم باللغات الشرقية .

● وترجم تلاميذه أشياء كثيرة من الأدب الفارسي لها قيمتها الخطيرة والحديث عنها يطول الآن .

وهذا الكتاب الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم قد ألف فى اللغة الفارسية منذ أكثر من تسعة قرون والذى نقل الينا منه على ضخامته ليس الا جزءا ضئيلا من كتاب كان يأتلف من ثلاثين جزءا لم يبق منه الا جزء واحد هو الذى نقله الى اللغة العربية الأستاذ يحيى الخشاب وزميله الأستاذ صادق نشأت بفضل ادارة الثقافة فى وزارة التربية والتعليم .

وهذا الجزء الذى بقى لنا ونقل فى هذه الأيام الى لغتنا جزء ضخم جدا يروعك بمجرد النظر اليه وحسبك أنه يقع فى تسع وخمسين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير . وذلك غير المقدمة الممتعة التى كتبها المترجمان والفهارس الدقيقة المختلفة التى ألحقاها بهذا الكتاب .

وأعترف بأنى ترددت غير طويل قبل أن آخذ فى الحديث عن هذا الكتاب الى قراء الجمهورية لأنى أعلم من أمر الناس فى هذه الأيام ما كان جديرا أن يغرينى بايثار الاستمتاع بهذا الكتاب فى صمت فجيلنا القارىء الآن قليل الاقبال على القراءة .

وهو اذا أقبل عليها فانما يتخير منها اليسير القريب وكلما

قصر الكتاب كان ذلك أدعى الى قراءته فى هذه الأيام . فاذا توسط . فى الطول كان الاقبال عليه مستكرها والضيق به شديدا . فأما اذا أسرف فى الطول فلا نصيب له من قرائنا المحدثين الا الاعراض عنه والزهد فيه وتركه لهذه القلة القليلة من أولئك الذين يقفون حياتهم وجهودهم على قراءة الكتب الطوال .

وقراؤنا المحدثون لا يؤثرون قراءة الكتب الصغار القصار فحسب ولكنهم يؤثرون من هذه الكتب نفسها ما كان مسليا وملهيا كأنهم يرون حياتهم سجنا يريدون أن يتخففوا من أثقاله بهذه القراءة التى تسليهم عن آلامهم وأحزانهم وتعينهم على أن يقطعوا الوقت الذى قضى عليهم أن ينفقوه فى السجن وان كانوا يضيعون حياتهم نفسها بمثل هذه القراءات التى لاتغنى عنهم شيئا وأنا مع ذلك قد أقدمت على الحديث عن هذا الكتاب لأمرين . أحدهما الأمل فى أن يكون بين قرائنا من يمنحهم الله شيئا من الحزم والعزم والصبر والاحتمال والاقبال على ما كان قدماؤنا يرونه خير ما يتاح لهم من المتعة القيمة فى الحياة . والثانى هو أن يعلم الذين يظلمون الجامعة ويسخرون منها ويظنون بها وبعلمائها الظنون أن هذه الجامعة لم تنشأ فى مصر عبثا ولم تضع ما أنفق عليها من الأموال وما بذل فى انشائها وتنميتها من الجهود وانما أخرجت لمصر أجيالا من العلماء وقفوا أنفسهم

على العلم الخالص وأنتجوا فيه أقوم النتائج وأبقاها ولم يمنعهم ذلك من المشاركة فى النهوض بالأعباء العامة على أحسن وجه وأكمله حين يطلب اليهم النهوض بها . فالجامعة فى حياة مصر الحديثة بل فى حياة الشرق العربى الحديث نعمة يجب أن نغتبط بها وأن نستزيد منها وألا نضن عليها بجهد أو مال .

والكتاب الذى أتحدث عنه مع هذا كله بعيد كل البعد عن أن يكون مملا أو ثقيلا فمع أنه كتاب فى التاريخ وفى تاريخ ملك بعينه من ملوك المسلمين فى الشرق وهو مسعود بن محمود الغزنوى صاحب البلاء الرائع العظيم فى تحقيق الصلة الدقيقة المنظمة بين الهند وبين العالم الاسلامى فى وقت كان علم المسلمين بشئون الهند فيه محدودا أو كالمحدود . وكان المؤلف قد قصد فى الأجزاء الثلاثين من كتابه أن يؤرخ للأسرة الغزنوية كلها ولكن كتابه ذهبت به الأيام ولم تترك لنا منه الا هذا الجزء الذى يتحدث عن تاريخ مسعود وحده .

وكان مؤلف الكتاب يعمل فى ديوان الرسائل منذ شبابه الأول الى أن بلغ الشيخوخة على أحداث عرضت له أثناء عمله . فكان عالما أدق العلم بحقائق السياسة فى هذه الدولة وحقائق الصلات المختلفة بينها وبين الدول الاسلامية وغير الاسلامية أيضا .

وهو يحدثنا فى هذا الجزء بألوان من سياسة الحـــكم ومن العلاقات بين الملوك فى تلك الأيام من جهة وبينهم وبين الخليفة العباسى المستقر فى بغداد من جهة أخرى . ثم بينهم وبين بلاد لم يكن الاسلام قد ساد فيها بعد من بلاد الهند والترك ومن اليهم . وهو لا يحدثنا عن هذا كله كما تعود المؤرخون القدماء حديثا جافا غليظا وانما يحدثنا حديثا سهلا قريبا لا مشقة فى قـــراءته ولا يجد القارىء فيها هذا العناء الذى يجده عادة عندما تساق اليه أحداث التاريخ فى غير تأمل ولا تدبر ولا استخراج لما فيها من عبر وعظات ولا تعمق للدوافع الخفية التى دفعت اليها . ذلك أن مؤلفنـــا ينـــاجى بهـــذا الكتـــاب نفســـه أكثر مما يناجى غيره من الناس فهو قد عمل فى القصر كاتبا فى ديوان الرسائل أيام محمود وابنه مسعود ورأى حقائق السياسة من كثب واستقصى أسرارها وحكم عليها أحيانا وحكم لها أحيانا أخرى فهو فقيه بما يكتب وهو بكتاب المذكرات أشبه منـــه بالمؤرخين الذين عرفناهم من علماء المسلمين .

وهو من أجل ذلك حاضر معك حين تقرأ لا يخيل اليك أنه يقص عليك الأنباء ويعرض عليك الأحداث وانما يخيل اليك أنك ترى عقله وقلبه وهما يستعرضان الأنباء والأحداث ، فيرضيان حينا ويسخطان حينا آخر ويتأثران دائما بما فيها من عبرة وموعظة

ويودان لو رأى النـــاس كلهم ما يريان واستخلصوا من العبرة والعظات مثل ما يستخلصان . وترى عقله وقلبه كذلك حين تعرض لهما الأحداث يستحضران ما يشبهها من أحـــداث مضت وقد يستحضران بعض الأقاصيص التى تثيرها هذه الأحداث لما تدعو اليه من تأمل واعتبار . وربما خيل اليك المؤلف أنه يقص عليك هذه الأقاصيص ليتمظ بها الجاهلون ويتنبه بها الغافلون .

والكتاب بعد ذلك رائع فى تصوير القصر الملكى الذى يزدحم فيه المتنافسون فى الحظوة لدى الملك ويتفوق فيه البـــارعون فى الكيد الماهرون فى المكر والدس والخداع . وفى تصوير مسعود نفسه كما كان ملكا ظالما اثرا لايحب شيئا كما يحب نفسه ولا يهيم بشيء كما يهيم بالمال يجبى له بالحق حينا وبالباطل والجور غالبا وهو لا يكره الغدر ولا يتحرج من سفك الدماء على أبشع صور الظلم فى أقبح مظاهر الجور والاستهانة بما للناس من حقـــوق وحرمات وهو بعد هذا كله مالك لأمره محقق لكل ما يفعل قد استجاب للمفسدين من وزرائه وحاشيته لا عن جهل أو غفلة بل عن توافق بين طبعه وطباع المفسدين من الوزراء ورجال القصر وهو على رغم ذلك شجاع لا يهاب المكاره ولا يتردد فى تجشم الأخطار وهو ينفق أيام ملكه محاربا للعدو أو ماكرا به كائدا له دون أن يمنعه ذلك من المكر بالرعية أو يشغله عن الكيد لها ومن

ورائه وزراؤه المفسدون يهونون عليه من ذلك ما يعسر ويفتحون له أبوابا من الفساد لا يتردد فى ولوجها ثم هو على حبه للمال لا يتردد فى الانفاق حين تدعو اليه مصلحة أو حين يرضى عن شاعر أو عالم أو رجل من رجال القصر .

والمؤلف يتحدث الى نفسه والينا بهذا كله فى يسر واسماح ويظهر مع ذلك اجلالا للملك واكبارا لمكانه مع انكاره لما فيه من خصال السوء ولما فى أعماله وأقواله من خطأ .

وليس من شك فى أن ما ضاع من أجزاء كتابه لم يكن أقل قيمة أو أهون شأنا من هذا الجزء الذى بقى لنا والذى نقله الأستاذ يحيى الخشاب وزميله الى اللغة العربية فالخسارة بفقد هذه الأجزاء الكثيرة عظيمة ليس الى تقويمها من سبيل وقد ترجم الكتاب ترجمة يسيرة تحبب قراءته وتغرى بالانتهاء منه حين تبدأه لا تجد فيها شيئا من مشقة قد كتبت باللغة التى يفهمها الناس فى هذه الأيام دون اخلال بأصول الفصاحة لولا هنات هنا وهناك يرجع بعضها الى الخطأ المطبعى وعسى أن يرجع بعضها الآخر الى أن الأستاذين الناقلين قد تأثرا بما ألف الناس من ألوان التعبير الذى لا يخلو من بعض الاهمال وان كنت أنا أستكثر هذا على الجامعيين وأحب لهم ألا ينقادوا لما ألف الناس وأن يكونوا حراصا على اصلاح ما قد يكون فى هذا المألوف من تقصير كله

بعيد كل البعد عن أن يكون عملا . انه معلم دائما حين يعمل وحين يقول والأصل فى المعلم أن يتوخى الدقة ويتخير ألفاظه ما وجد الى ذلك سبيلا .

وشيء آخر ألاحظه وأتمنى أن يتداركه المترجمان حين يعيدان طبع هذا الكتاب فهنالك أنباء تتصل بالقصور العربية القديمة نقلها المترجمان باللغة التى يألفها الناس . وكنت أوثر أن يرجعا الى نصوصها الأولى كما جاءت فى كتب التاريخ العربى .

ومن أمثال ذلك ما جاء من التمثيل بقصة الرشيد حين ولى على بعض بلاد فارس بعض ولاته مكان الفضل بن يحيى البرمكى . فأرسل اليه الوالى الجديد هدايا نفيسة لم يتلق مثلها من الفضل حين كان واليا على ذلك الاقليم . فلما عرضت عليه هذه الهدايا راعته وسأل يحيى البرمكى : أين كان هذا كله أيام كان الفضل واليا ؟ فأجابه يحيى : عند أهل الاقليم .

أراد الرشيد أن يلمح الى أن الفضل كان يؤثر نفسه بهذه النفائس ، وأراد يحيى أن يلمح الى أن ابنه كان عدلا مؤثرا لمصلحة الرعية وأن الوالى الجديد يرهق الرعية ويستصفى أموالها ليتقرب بها الى أمير المؤمنين ولو رويت هذه القصة بنصها العربى القديم . لكان ذلك أدق وأكثر امتاعا . وكذلك قصة الفضل بن الربيع حين حنث فى عهده للرشيد ولم ينفذ وصيته وحين رضى

المأمون عنه وعن أمثاله من الذين نظــروا الى مصــالحهم ولم يخلصوا فى النصح للخلفاء بمقدار ما أخلصوا فى ايثــار أنفسهم بالخير فهذا كله يروى فى الكتب العربية القديمــة فى لفظ رائق شائق وكان الرجوع اليه أدق وأدنى الى امتاع القراء ولكن هذه الهنات لا تكاد تذكر الى جانب الجهد الهائل الرائع الذى بذله الأستاذان والمشقة الشاقة التى احتملاها فى استخراج هــذا الكنز النفيس من كنوز اللغة الفارسية واهدائه الى اللغة العربية وقرائها.

فلهما التهنئةصادقة والشكر خالصا .

السد

أريد اليوم أن أنتقل بقراء هذا الحديث من مصر ومن أدبائها وكتابها الى وطن عربى آخر لانكاد نعرف عن حياته الأدبية شيئا ذا بال لأن ظروف السياسة حالت بيننا وبين الاتصال الدقيق المنظم به وبأدبه آمادا طوالا وهو تونس . فقد جثم الاحتلال الفرنسى على هذا الوطن العربى الكريم وتعمد أن يقطع الصلة بينه وبين أشقائه من الأوطان العربية الشرقية وأتيح له نجح كثير فيما أراد . فلم تكن كتب التونسيين تصل الينا من طريق مباشرة الا نادرا ولم تكن كتبنا وآثارنا الأدبية تبلغ تونس الا مهربة الى أهلها من طريق فرنسا نفسها وربما جاء تونسى كريم الى مصر يحمل اليها بعض الآثار التونسية وعاد الى وطنه ببعض الآثار المصرية ، ومع ذلك فقد حاولت وزارة المعارف المصرية فى يوم من الأيام أن تحقق الصلة بين الأدب العربى الشرقى والأدب العربى فى تونس فنشرت للأستاذ الجليل حسن حسنى عبد الوهاب عضو مجمع اللغة العربية فى مصر كتابا صغيرا قيما عن الأدب التونسى المعاصر وزعته على تلاميذ المدارس الثانوية منذ أكثر من عشر سنين ثم انقطع هذا الجهد ولم يتجدد . ووصل الى مصر شىء من

الشعر التونسى المعاصر فتلقاه المصريون لقاء تجاوز الرضا الى الاعجاب ولكن الأمر وقف أو كاد يقف عند هذا الحد وقد انجلت عن تونس أو كادت تنجلى غمرة الاستعمار الفرنسى البغيض وجعلت الصلة تستأنف بيننا وبين اخواننا التونسيين فى شىء من النظام نرجو أن يطرد ويزداد .

والأثر التونسى الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم قصة تمثيلية رائعة ولكنها غريبة كل الغرابة كتبها صاحبها الأديب الأستاذ محمود المسعدى لتقرأ لا لتمثل ، ولتقرأ قراءة فيها كثير من التفكير والتدبر والاحتياج الى المعاودة والتكرار وحسبك أنى قرأتها مرتين ثم احتجت الى أن أعيد النظر فيها قبل أن أملى هذا الحديث وهى بأدب الجد العسير أشبه منها بأى شىء آخر ، وضع فيها الكاتب قلبه كله وعقله كله وبراعته الفنية واتقانه الممتاز للغة العربية ذات الأسلوب الساحر النضر والألفاظ المتخيرة المنتقاة . وقصد بها الى اثارة التفكير الفلسفى لا الى التسلية والتلهية ولا الى الامتاع السهل والإثارة اليسيرة بل الى تعمق الحياة والفقه بها والنفوذ الى ما وراءها وقد تستطيع أن تقول انها قصة فلسفية كأحق وأدق ما تكون الفلسفة وتستطيع كذلك أن تقول انها قصة شعرية كأروع وأبرع ما يكون الشعر ولا غرابة فى ذلك فما أكثر ما يلتقى الشعر والفلسفة ، والمثقفون جميعا يعرفون أن

آثار أفلاطون لم تخلص للفلسفة وحدها ولم تخلص للشعر وحده وانما التقطوا فيها تفكير العقل وتدبره وتوثب الخيال وتساميه . فارتفعت بذلك الى مرتبة من العلو قل أن يظفر بها شعر شاعر أو فلسفة فيلسوف . ولابد لقارىء هذه القصة من أن يلاحظ شيئين لابد من استحضارهما لفهمهما وتعمق أسرارها . أحدهما أن الكاتب تونسى عاش فى وطن قد ألح عليه الاستعمار الأجنبى فحرم أهله الحرية وحال بينهم وبين النشاط الخصب واستأثر من دون أهله بالخير كله ولم يترك لهم الا ما يقيم الحياة ، وحال بينهم كذلك وبين النشاط العقلى الخصب لولا فضل من قوة أصيلة فيهم عصمتهم من الاستكانة والاذعان . وتطاول به الزمن وتتابعت معه الخطوب حتى فرض على أهل الوطن شيئا الا يكن يأسا فهو من اليأس غير بعيد . والثانى أن هذا الأديب التونسى قد تثقف بالأدب العربى كأحسن ما تكون الثقافة ثم أتم دراسته فى فرنسا فأتقن العلم بالأدب الفرنسى كل الاتقان وتأثر فيها بكاتب مفلسف معروف هو البير كامو . والبير كامو هذا نشأ فى شمال أفريقيا فى الجزائر وغلبت عليه الفرنسية كما تغلب على أكثر الشباب الجزائريين فأصبح كاتبا ممتازا من الكتاب الفرنسيين . وله مذهب فلسفى معروف نشأ عن الوجودية وهو يقوم على أن من العبث أن نحاول فهم الحياة الانسانية : فليس لهذه الحياة غاية معروفة

يمكن الوصول اليها وحكمة قريبة يمكن استكشافها ، وانما هي عبث من العبث . وليس للانسان الا أن يكتفي بنفسه ولا يبحث عن حكمة وجوده ولا عما وراء حياته لأنه لن يظفر بشيء وهو يشبه حياة الانسان أو الوجود كله بهذه الأسطورة اليونانية القديمة التي تروى أن بطلا من أبطال اليونان قضى عليه بعد موته أن ينفق الخلود دافعا صخرة من الحضيض الى قمة الجبل . وهو يدفعها أمامه حتى يبلغ بها القمة ولكنها لا تكاد تبلغ القمة حتى تنحط الى الحضيض فيضطر الى أن يدفعها من جديد . وهو كذلك يدفع الصخرة الى القمة وتنحط به الصخرة الى الحضيض الى آخر الأبد ان كان للأبد آخر . وليس لهذا القضاء الذي قضى على هذا البطل فقه ولا حكمة فخلوده عبث وجهوده عبث والوجود كله يشبه هذا العبث الذي فرض على هذا البطل اليوناني القديم .

وتأثر كاتبنا بهذا الأديب الفرنسي كما تأثر بالأدب العربي وبالوطن التونسي . والحياة التي كان يحياها قبل الاستقلال وكانت هذه القصة صورة رائعة لهذه الألوان من التأثر كلها . فالكاتب يائس أو كاليائس يدفعه الأمل والخيال وطبيعته الانسانية الى أن ينشيء ويبدع ويبتكر فينفق الجهد ويحتمل العناء ويشقى بألوان من المشقة والألم حتى اذا استيقن أنه قد بلغ الغاية وانتهى

الى النجح ذهب كل ما أنشأ وكل ما أبدع وكل ما قدر لانشائه وابداعه من نتائج كأنه لم يكن وكأنه لم يبذل جهدا ولم يحتمل عناء ولم يقهر المصاعب أو يذلل العقاب . أو قل ان شئت الدقة أنه يتصور الانسان كذلك فى كل ما يقدر وفى كل ما يدبر وفى كل ما ينشىء أو يبتكر . والانسان على ذلك مغرور بطبعه فجهوده الضائعة وعناؤه الذى لا يغنى عنه شيئا والمصاعب التى تذعن له والعقاب التى تذل له ثم تثور به ثم تعود سيرتها الأولى ، كأنه لم يقهرها ولم يذللها ولم يشق الأعوام الطوال بما بذل من جهد واحتمل من عناء فى سبيل قهرها وتذليلها . كل ذلك لا يفل من عزمه ولا يجعل لليأس الى قلبه أو عقله سبيلا .

وقد استأثر الأمل والخيال بأمره كله فهما يدفعانه الى الجد فى غير طائل والى الكد والعناء فى غير احتمال ويخدعانه خداعا متصلا ويلقيان فى روعه أنه ان يخفق اليوم فسيبلغ النجح غدا . ولا عليه فى أن يخفق مرة فى اثر مرة فالنجح مكتوب له على كل حال بل لا عليه أن يكون النجح مكتوبا له أو محرما عليه . فهو مدفوع الى الأمل ومدفوع الى العمل لا يصرفهما عنه الا الموت . والموت يصرف جيلا عن الأمل ولكن الجيل الذى يأتى على أثر هذا الجيل لا يتعظ ولا يعتبر بما لقى الجيل الذى سبقه وانمـا يسلك طريقه ويمضى على أثره آملا عاملا محاولا ما لا مطمع له فيه ولا سبيل اليه كأن أبا تمام قد صوره أصدق تصوير فى بيتيه المشهورين :

وركب كأمثال الأسنة عرسوا
على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صــدوره
وليس عليهم أن تتم عواقبــه

وواضح جدا أن قصة كاتبنا هذه لا يمكن الا أن تكون رمزية فهو نفسه لم يخفق بعد جد وكد ولم يفكر فيما كتب له هو من نجح أو اخفاق . وأكبر الظن أنه مؤمن فى هذه الأيام بالأمل والعمل سالك طريقه الى النجح والتوفيق فى توطين التعليم الثانوى فى تونس ولكنه ينبئنا بأنه كتب هذه القصة أيام عزلة وانفراد ثم اختبرها بعد أن عاشر الناس وعمل معهم فلم تنكره ولم ينكرها . والحمد لله على أنها لم تنكره ولم ينكرها فقد أتاح ذلك نشرها وامتاعنا بقراءتها .

ومادام الكاتب قد اتخذ التعبير الرمزى له سبيلا ومادام لا يريد أن يكتب فلسفة خالصة وانما يريد أن يكتب فلسفة أدبيــة أو ينشىء أدبا فلسفيا فليكن التعبير الشعرى هو سبيله الى تصوير فكرته هذه بالرمز والايماء . ولقد وفق الى ذلك توفيقا ما أعلم أنه أتيح لأديب عربى معاصر من الرمزيين لأن أدباءنا الرمزيين فى الأوطان العربية على اختلافها لم يبلغوا من تطويع اللغة العربية

لفنهم ما يتيح لهم الاتقان والابداع فهم ما زالوا فى طور المحاولة والتجربة .

أما كاتبنا فقد أذعنت له لغته اذعانا واستجابت له فى غير مقاومة ولا عناد وأخشى أن تكون قد استجابت له أكثر مما ينبغى فأطمعته فى نفسها وأغرته أحيانا بأن يشق عليها ويرهقها من أمرها عسرا وكاتبنا يبدأ بانشاء بيئة شعرية خالصة لا تكاد تقبل عليها حتى ترى نفسك فى عالم من الخيال غريب لا عهد لنا بمثله فى الأدب العربى الا أحيانا قليلة حين يرمز الفلاسفة الى بعض ما يريدون تصويره من ألوان الحكمة فيتصورون انسانا فردا قد وجد وحيدا فى جزيرة خالية فاستكشف وحده العلم والحكمة كما فعل ابن سيناء فى الشرق وابن طفيل فى الغرب أو حين يرمزون الى ما يكون بين الانسان والحيوان من استئناس وتذليل ومن ثورة وعصيان كما فعل اخوان الصفاء فى بعض رسائلهم ولكن كاتبنا على ذلك خصب الخيال ناقد العقل غنى اللغة يشيع الحياة والعقل والمنطق فى الجبل وصخوره وحيوانه المستأنس والمستوحش ويشيع الحياة كذلك فى الجو بما يبتكره من هذه الهواتف التى تتحدث بين حين وحين الى الانسان والحيوان والجبال بما يريد الكاتب أن تتحدث به الى هؤلاء جميعا . وأشخاص القصة عجب من العجب فهناك انسان ملكه الأمل وحب العمل والامتناع على اليأس والثورة بالواقع من الحياة وهو غيلان وهناك امرأة ميمونة التى

تؤمن بالواقع أشد الايمان وتريد أن تكتفى به وترفض الأمل والخيال كل الرفض وتحاول أن تكف زوجها عن الاستجابة لهما وتوئسه من غايتهما ، وهناك بغلهما الذكى الناطق اذ أتيح للبغال حظ من نطق أو ذكاء . وهناك الصخوره التى تعرض لها الحياة ساعة من نهار أو ليل أو ساعة بين النهار والليل . فتتحدث وتصلى وتسبح باسم تلك الآلهة التى ابتكرها كاتبنا ابتكارا وهى صهباء . وأحسبه رمز بها الى الأرض التى تحب الجدب والظمأ والقحول والاقفار . وصاحبنا غيلان يريدها على أن تشرب الماء وترتوى به وتنشق عما يمكن أن تثمر من الثمرات لتغير حياة الذين يعيشون عليها وتخرجهم من الضيق الى السعة ومن البؤس الى النعيم ولكن هذه الآلهة عنيدة أبية عصية لا تسمع ولا تستجيب بل هى تبطش بمن يحاول أن يشكرها على ما لا تحب . ولهذه الآلهة التى تكثر السكون والركود والجمود نبيها ذو الأصوات الكثيرة المختلفة الذى لا يرى ولكنه يتحدث الى الناس والى الأشياء والحيوان جميعا بأصواته المختلفة كلها فى وقت واحد .مغريا بالاذعان للآلهة وبعبادتها زاريا على الانسان غروره الذى يخيل اليه القدرة على عصيان الآلهة واستكراهها على أن تطيعه وتذعن لما يريد أن ينشىء عليها من ضروب الاصلاح والتعمير . وغيلان قد استكشف ينبوعا غزيرا وهو يريد أن ينشىء سدا يمنع ماء هذا الينبوع من التفرق

والانتشار ليصلح به الأرض ويملأها خيرا وثراء . وميمونة تؤنسه من ذلك وتريد أن ترده عنه وتزهده فيه . ولكنه لا يحفل بها ولا يسمع لها وانما يحفل بشخص آخر غريب رقيق فاتن بارع الجمال وهو مياره رمز الخيال الذى يغرى دائما بالمضى الى أمام وبالامتناع على اليأس . وغيلان يوفق الى بناء السد وهو عنه راض وبه معجب ولكنه لا يكاد يتم السد حتى يثور به عماله فيدمروا ما بنوا تدميرا ويحاولوا قتل غيلان نفسه ، لولا أن الالهة صهباء تنجيه منهم . لعله أن يثوب الى رشده ويثوب عن محاولة ما ليس اليه سبيل . وغيلان على ذلك لا يثوب ولا يثوب وانما يستأنف العمل كأنه لم يلق اخفاقا يعينه على ذلك خياله الذى لا يعرف كلالا ولا ملالا . وقد تم السد للمرة الثانية أو كاد وغضبت صهباء فبطشت بالسد بطشا لا معقب عليه . فهذه الطبيعة كلها قد ثارت . فالريح تعصف والرعد يقصف والبرق يخفق والمطر ينهل والجبل يضطرب ثم يزلزل بما عليه ومن عليه وينشق فتخرج من جوفه نار لا تريد أن تبقى على شيء . وهذا غيلان وخياله الحبيب مياره لم يكفا عن عنادهما ولكن العاصفة تحملهما الى غير طريق .

وهذه ميمونة وحيدة تنحدر الى السهل وأين هى من السهل

يخيل اليها أنه قريب ولكنه ينحط عنها ويبعد منها كلما ظنت أنها قد كادت تبلغه .

ولست أدرى أفهمت القصة أم لم أفهمها ولكنى أعلم أن هذا التلخيص الموجز أشد الايجاز مقارب ان لم يكن دقيقا ! ولاغرابة فى أن أشك فى أنى قد فهمت عن المؤلف حق الفهم بعد أن قرأت قصته مرتين أو ثلاثا فهذه طبيعة الرمز وهى كذلك طبيعة الشعر لا يقتله الفهم السريع اليسير وانما يحييه هذا الغموض الخصب الذى يضطرك الى أن تقرأه وأن تقرأه ويعطيك فى كل قراءة شيئا لم تظفر به فى القراءة الأولى . وكم كنت أتمنى أن تكون لغة المؤلف أيسر شيئا مما هى فهو قد نحتها من صخر كأنه اشتقها من الجبل الذى تجرى عليه القصة فأضاف عسر اللفظ الى عسر المعنى وعسر الأسلوب .

والقصة كما قلت شعر كلها ولكنه شعر غير منظوم وربما عرض فيه النظم أحيانا ولكنه نظم يبتكره الكاتب ليعرب به عن ذات نفسه لا يعتمد فيه على شىء مما عرف القدماء والمحدثون فى شعرهم التقليدى وهو الى الشعر الفرنسى المطلق أدنى منه الى أى شىء آخر .

وقد قدم لهذه القصة أستاذان جليلان من الأساتذة التونسيين

أحدهما الأستاذ محجـوب بن ميلاد أسـتاذ الفلسفة والآخـر الأستاذ الشاذلى الفليبى أستاذ اللغة والأدب . وكلاهما قد فهم القصة وأعجب بها ومسها بشىء من النقد . .

فلأشاركهما فى الاعجاب بالقصة وفى تهنئة الكاتب والثنـاء عليه وان لم أثق كل الثقة بأنى فهمت القصة فى يسر كما فهماها .

وحي الحرمان

والمحزوم هنا أمير ذو وزارتين جده ملك عظيم ، وعمه ملك كريم ، وأبوه أمير ووزير خطير قد أتاح الله له من أسباب السعادة ونعمة البال الكثير الذى نتمنى له منه السعة والمزيد ، وهو الأمير عبد الله الفيصل .

وقد حاول أن يبين لنا حقائق الحرمان الذى أضناه وأشقاه وأوحى اليه بديوان من الشعر هو الذى سأحدثك عنه اليوم . ولكنه لم يبن من هـذه الحقـائق شـيئا ، وما كان له أن يبين منهـا شيئا ، شـأنه فى ذلك شـأن شـعراء كثيرين عرفهم وطنه نجـد ومستقره الحجـاز فى عصور قديمـة مضت عليها قرون طوال . وليس هو الا واحدا منهم يجب أن يضاف اسـمه الى أسمائهم ، وكلهم أحس الحرمان وشقى به ولم يستطع أن يبين عنه لأنه لم يعرف حقائقه ، وانما اتخذ التصوير الرمزى وسيلة الى الشكوى منه والتبرم به والتمرد عليه أحيانا . وقد قلت فى غير هذا الموضع ان الشعراء العذريين الذين ظهروا فى العصر الاسلامى الأول فى نجد والحجاز وملأوا الدنيا بكاء وشكاة ولوعة وحزنا

ورددت العصور أصداء حزنهم . وما زالت ترددها الى الآن . قلت ان هؤلاء العذريين ليسوا الا جماعة المحرومين الذين أحسوا أنهم يفقدون شيئا ويألمون أشد الألم لفقده ولكنهم لم يستطيعوا أن يتبينوا حقيقة الشيء الذى فقدوه ، فاتخذوا المرأة رمزا لما فقدوا واتخذوا الحب رمزا لما أحسوا من لوعة وحسرة وألم واتخذوا الغزل وسيلة الى الأنين والحنين والشكاة والبكاء :

أريد لأنسى ذكـــرها فكأنما   تمثـل لى ليـلى بكل سبيل

كذلك كان يقول شاعر من هؤلاء الشعراء فى القرن الأول للهجرة . يريد أن ينسى حبيبته ويبذل فى ذلك ما يستطيع من جهد ولكن ذلك لا يتاح له لأن هذا الشيء الذى أحبه وهام به قد ملك عليه قلبه ولبه وملأ عليه الدنيا من حوله وأخذه من جميع أقطاره . فهو لا ينظر الا رآه ولا يخلو الى نفسه الا فكر فيه . ولا يسمع صوتا من أصوات الطبيعة الا وجد فيه صدى لصوت هذا الأمل البعيد عنه جدا القريب منه جدا والذى يسميه ليلى :

وانى وتهيامى بعـزة بعـدما   تخليت عمـا بيننـا وتخلت
لكالمرتجى ظـل الغمـامة كلما   تبـوأ منها للمقيـل اضمحلت

وكذلك كان يقول كثير وقد خيل الى نفسه أو خيلت اليه نفسه أنه قد تسلى عن عزة وأن عزة قد تسلت عنه ولكنه كذب

نفسه أو كذبته نفسه ، فهو لم يتسل عن شىء ولا يستطيع أن يتسلى عن شىء لأنه موكل بالأمل الكاذب يتبعه فى كل مكان ولكنه لا يكاد يدنو منه حتى ينأى ذلك الأمل الكاذب عنه . كالذى يرى غمامة يريد أن يستظل بها ساعة من وهج الصحراء الذى أحرقه وأضناه ولكنه لا يحس ظلها حتى تمضى عنه وتخلى بينه وبين القيظ المحرق المرهق يذيقه من العذاب ألوانا .

كذلك شاعرنا الأمير أتيحت له الدعة والسعة ، وبسط الله له فى الأمل وأسبغ عليه نعمة حياة رضية كانت جديرة أن تهيىء له من نعمة البال ورضى النفس واطمئنان القلب ما ينعم به كثير من أمثاله ولكنه لم ينشأ فى نجد وحده وانما نشأ معه هذا القرين المجهول الجميل الخلاب الذى يتراءى له من قريب حتى يغريه بنفسه ويطمعه فى قربه والاستمتاع بعشرته . فاذا حاول أن يظفر بما تمنى لم يجد الا سرابا ووجد عند السراب حرمانا وعذابا ، فنفثت نفسه المحزونة بقول جميل :

ومنيتنى حتى اذا ما ساكنتنى　　بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عنى حيث لا لى حيلة　　وغادرت ما غادرت بين الجوانح

واقرأ معى هذه الأبيات لشاعر قديم من هؤلاء المذريين فستحس فيها هذا الحرمان المشقى المضنى ، سترى نفس الشاعر

حية أمامك تتبع أملها الكاذب الخائب فى غير طائل ولا جدوى وقد أفلت منه بعد أن خيل اليه أنه قد أتيح له ، فهو ينظر اليه موليا كما ينظر الانسان الى النجم حين يغرب فى أعقاب الليل منهزما أمام نور الصبح المشرق ، وستعجب من هذا الشعر بصوره ومعانيه وألفاظه الجزلة الرصينة وشكواه اليائسة الحزينة :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة ببطن منى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصى منها اذا قذفت به من البرد أطراف البنانّ المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح فى أعقاب نجم مغرب
ألا انما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

واقرأ بعد ذلك هذه المقطوعة لشاعرنا الأمير ، فستحس فيها مثل ما أحسست فى هذه الأبيات القديمة من الأنين والحنين واللوعة والشكاة وسيحيط بك جو يشبه الجو الذى أحاط بك فى تلك الأبيات . جو واد عربى فى الطائف أو فى مكان قريب منها ، وسترى الشاعر يودع صاحبته بعد أن سعد بلقائها سعادة نقية يملؤها العفاف ، وستراه بعد فراقها شاكيا باكيا تحرق اللوعة قلبه تحريقا لا يستطيع أن يرجو اللقاء . ولكنه واثق بأنه لن يستطيع نسيان هذه الحبيبة التى لم تكد تتراءى له حتى تنأى عنه . ولكنك ستجد فرقا عظيما فى الصورة الشعرية عند الشاعرين . فأما أبيات الشاعر القديم فرصينة جزلة وأما أبيات الشاعر الحديث فيسيرة سهلة

لا تخلو من بعض ما ينبو عن الذوق البدوى القديم ، لأن الشاعر الحديث لم يتأثر بالجو النجدى وحده وانما تأثر بشيء من الجو الحضرى الذى يألفه المعاصرون فى مصر ولبنان ، فهو يثنى الوداع فى غير حاجة الى تثنية لأن الوداع بطبعه لا يكون الا بين واحد وغير واحد . وهو يصطنع ألفاظا وأساليب يحبها المعاصرون الذين لا يحفلون بجزالة اللغة ولا بصفائها ، مع أن الشعر العربى شديد الحاجة الى الجزالة والصفاء لا يقبل من الاسماح كل ما يمكن أن يقبله النثر . واقرأ معى هذا الشعر :

هل تذكرين وداعينا مصافحة ... أودعت فيها كريم الأصل يمناك
أو تذكرين بوادى وج وقفتنا ... وقد أفاضت علينا الطهر عيناك
وحين غنت على الأغصان شادية ... أنشودة الحب فى ترديدها الباكى
أنت الحيـــاة لقلب جد مكتئب ... وليس يسعده بالوصـــل الاك
ماذا يضيرك لو حققت أمنيتى ... فيسعد القلب من شوق لرؤياك
ففيك للقلب أهــواء مجمعـــة ... وفى لقائك دنيا الشاعر الشاكى
أقصى أمانى لو تبدين باســـمة ... أستلهم الشعر من باهى محياك
دنياى نار من الهجران محرقة ... اذا نأيت وروض حين ألقـــاك
فان نسيت ودادا كان يجمعنا ... على العفاف فقلبى ليس ينساك
والذكريات الى ما عز قربك لى ... سلوى فؤاد على الأيام يهواك

شاعرنا اذن بدوى النزعة فى هذا الحب النقى العفيف القريب

البعيد فى وقت واحد ولكنه على ذلك مصرى اللغة أو لبنانيها . فهذان الوداعان وهذه الرؤيا التى تسعده وهذا الضمير المتصل بعد الا وأشباه هذه الهنات ليست من لغة البادية فى شيء ، وليس فى ذلك عجب ، فالشاعر متأثر بشيئين واضحين كل الوضوح فى ديوانه كله : أحدهما طبعه العربى الخالص الذى يأتيه من نسبه ومن وطنه الذى نشأ فيه وهو نجد والذى يعيش فيه الحجاز . والآخر هذه الحواضر العربية التى يلم بها بين حين وحين والتى نرسل اليه أدبها السهل اليسير فى كل وقت . فيقرأه فى يسر واسماح لا يتاحان له حين يقرأ شعر أسلافه من القدماء النجديين والحجازيين . وقديما تنازع العراق والشام فى المتنبى لأنه ولد فى الكوفة وأنشأ أكثر شعره فى الشام وتنازعت مصر والشام أبا تمام لأنه ولد قريبا من دمشق وألم بمصر وسمع من شيوخها ويخيل الى أن شاعرنا الأمير سيكون موضوع نزاع بين الجزيرة العربية التى ولد ونشأ فيها وبين لبنان ومصر لأنه ألم بهما غير مرة ، وقرأ شعر المعاصرين من شعرائهما وقد ادعاه للبنان بالفعل شاعر لبنانى كريم هو الصديق صلاح لبكى رحمه الله فى المقدمة التى صدر بها الديوان ولم ينكر الشاعر من هذا شيئا ، ولكنى أنا أزعم أن الشاعر مصرى اللغة بدوى النزعة كما قلت وأكاد أعتقد أنه تأثر باثنين من شعرائنا المعاصرين خاصة هما على محمود طه وابراهيم

ناجى رحمهما الله . وتأثير هذين الشاعرين فى شعر هذا الديوان أظهر من أن يحتاج الى دليل ولولا أن هذا الحديث لا يحتمـل اطالة ولا تفصيلا لبسطت القول فى ذلك ولوازنت بين كثير من شعر الديوان وشعر الشاعرين المصريين . ولكن هذا العصر لا يحتمل مثل هـذا النزاع فليكن شاعرنا نجديا أو حجـازيا أو مصريا أو لبنانيا فليس لشىء من هذا كله خطر وحسبه أنه شاعر عربى مجيـد .

واقرأ معى هذه الأبيات :

هـل تذكرت الذى كان لنـا بالضفتين
يوم كنا والهـوى يجتاحنا كالزهرتين
اذ بعثنـا من هـوانا وجـوانا زفرتين
وسكبنا فوق سطح النهر منـا دمعتين
لحظة مرت بنا يا حب من قبـل الغروب
اذ تولى الشمس قبل الليل أعراض الشحوب
ورأينـا الليل فى أعطافه النور يذوب
فصمتنا وتناجت بالهوى خرس القـلوب
هـل تذكرت الذى كان لنا فى الكرنك
حين أشهدنا على الحب نجـوم الفلك

فكأنى لم أمتع بشذى من حسـنك
وكأنى لم ألج يوما مغـانى عدنك
كنت أبكى ياحبيبى عند لألاء التلاقى
يوم كنا نقطع الحلم بنجوى واشتياق
خائفا مستبقا فى الوصل أيام الفراق
غاب هل غـاب وودى لك باق ؟

أرأيت الى هذا الشعر الجميل الجيد الذى يعترضه أحيـانا بعض الضعف فى القافية ، لقد أوحى به الكرنك الى الشاعر كما يقول . وأنا مع ذلك لا أجد من الكرنك فى هذا الشعر الا لفظه فأما صوره ومعانيه وألفانه فقد أوحى بها النيـل وأوحت بها الشمس التى جعلت أعراض الشحوب تأخذها فى الأصيل وأوحى به الليل الذى جعل النور يذوب فى أعطافه وأوحى به الحب الذى سعد به الحبيبان ساعة بعد فراق طويل وقبل فراق طويل آخـر كانا يحسانه ويشفقان منه . فهما ينعمان ويختلسان الوصل ويعيشان فى حلم وتعقد السعادة لسانيهما حينا كما يعقده خوف الفراق حينا آخر فتسكت الأفواه وتتناجى القلوب وتشهد نجوم السماء على هذا كله ثم ينقضى هذا كله ولا يبقى منه الا الذكرى التى يحتفظ بها الشاعر ويتمنى لو لم ينسها حبيبه . فأما آثار الكرنك وبيئته والذين يعيشون فيه ويلمون به فلم يحس الحبيبان لهما حسا

ولا وجودا شغلهما الحب عن كل هذا . والحب أثر بطبعه . وما أكثر ما يعجز الانسان وآثاره مهما تكن عظاما عن لفت العاشقين عما هم فيه من سعادة بالقرب واشفاق من البعاد .

وقد وقفت عند كل ما فى هذا الديوان من مقطوعات قصار وقصائد طوال وان كان شاعرنا قلما يطيل وقلما يبلغ العشرين من الأبيات وان بلغها فهو لا يعدوها ..

وقفت عند هذا الشعر كله وقفات فيها كثير من الرضى الذى يمازجه غالبا شيء من القلق لأنى أجد فيه من عذوبة الروح وصدق اللهجة ما هو جدير أن يحب . ولكنى أجد فيه أحيانا ألفاظا وأساليب تنبو عن هذا الطبع الذى خلق للاجادة والاتقان .

وانظر معى فى هذه الأبيات فسترى فيها اختلافا عجيبا ولكنه يعذب ويحبب الى النفس لولا نبوات للفظ تعرض لك فتقلقك عن مواطن الرضى سترى شاعرنا بدويا كأنه ينظر الى امرىء القيس فى الأبيات الأولى من مقطوعته حين يصف رحيل الأحبة وما أثار هذا الرحيل فى نفسه من حزن وأسى وما انهل فى آثار أحبائه من دمع غزير كأنه الجمر . ثم ترى الشاعر ينظر فيه الى المتنبى فى أول قصيدته المشهورة :

ليالى بعد الظاعنين شــكول طول وليـــل العاشـــقين طويل

ثم تراه آخر الأمر يصير الى الشعر المعاصر فى مصر ولبنـــان

ويوشك أن ينتهى الى غير شيء وليس بهذا الاختلاف بأس لو اتسق الشعر ولم يظهر فيه هذا الاضطراب القلق الذى يأتى من التناقض بين طبع شعرى بدوى ولغة معاصرة أسرفت عليها الحضارة فكادت تدنو بها من لغة الحديث :

حارت الأشــعار فى ماذا تقول　　　شرد الفكر وقد جد الرحيــل

فانظر الى أول هــذا البيت الى هذه الأشعار الحائرة التى لا تدرى ماذا تقول والى هذا الفكر الشارد وكيف أدى الشاعر هذا المعنى بلغة الحديث فى أندية الشباب . ثم انظر الى ختام البيت فسيعيدك فجأة الى هذا الرحيل الذى جد كأنك ترى ابل الظاعنين وقد دفعت بهم الى أعماق الصحراء .

ثم اقرأ :

أزمعوا بينا وشــدوا رحلهم　　　فتوارى طيف أحلامى الجميل

فسترى هؤلاء الظاعنين وقد أزمعوا بينا وكنت أتوقع أن يقول الشاعر بعد هذا شدوا أرحلا .

ولكن الشاعر لم ير أمامه الا رحلا واحدا شده هؤلاء الظاعنون فاستقام له شطر الوزن الأول من البيت ولكن بعد أن انحرف عما كان ينبغى له من رصانة اللفظ والصورة جميعا .

وتهــاوى الدمــع فى آثارهم　　　وهو كالجمر على الخد يسيل
انهـــا وحى أراها أدمعـــا　　　تملأ الأجفان (والليل يطول)

والشـــاعر يؤنث الروح فى ديوانه كله ماضيا مــع كثير من المعاصرين فى ذلك ولو قد ذكره لمضى مع الفصحاء من شـــعراء البادية ولزاد بيته الجميل جمالا :

يا فؤادى ، ان يكن جد النوى
فلياليك من اليــوم شـــكول
ليس فيهن رؤى بســـــامة
كل ما فيهن شـــكوى وذهول
ولقــد أقفرت الدنيــا فمــا
تبصر الأعــين الا ما يهــول
أربع مقفــــــرة فى صمتها
وشـــــتاء ليتــه عنــا يزول

وانظر الى ختام هذا البيت الأخير كيف أدركه الضعف بعد أن ابتدأ البيت قويا متينا وكيف تحس أن الشاعر انما ختم بيته على هذا النحو لأنه كان فى حاجة الى هذا الفعل يقيم به الوزن والقافية جميعا :

وظـــلال يبست أغصـــــانها   وأمان لم تزل فيـــك تجول

فانظر الى هذه الظلال التى يبست أغصانها الى ما فيها من تكلف وأحسب الشاعر أراد أن يضع جنانا مكان الظلال فأخطأه اللفظ :

ما تراهــا يا فؤادى ضـــــلة   تعبت فيها نفوس وعقــــول

ان تكن بالوهم تحيا بعدما جد منه البين فالوهم ذليل
ما ترانا سفحت أدمعنا وكذاك الدمع للوجد رسول
نحن صرعى لفتات ورؤى وأمان ما اليهن سبيل

وكذلك ترى الشاعر حائرا بين طبعه البدوى الذى يمده بدقة الحس ورقة الشعور وصدق اللهجة ولغته المتحضرة التى لا تكاد تلائم طبعه الصادق الشاعر الخصب الا فى شىء من القصور .

وأستطيع لو استجبت لنفسى أن أروى كل ما فى هذا الديوان فهو كله جدير أن يروى على ما يشع فيه من قلق لا يقتصر على الشاعر وانما ينال القارىء ولا سيما اذا كان هذا القارىء قد ألف من أهل نجد والحجاز فى عصورهم المزدهرة تجاوبا قويا بين أرواح الشعراء وألسنتهم . ولكنى آختم هذا الحديث بهذه المقطوعة الحلوة التى غنى فيها المغنون وليتهم لم يفعلوا . فقد خرجوا بها عما ينبغى لها من الصدق فى تصوير الحزن والحنان الى هذا النحو من التلاعب بالصوت والعبث بالألفاظ ، وافساد بعضها لسوء النطق بها كما يفعلون بكلمة الأمر فى البيت الثانى فيفتحون بالهمزة فى أولها أفواههم وحلوقهم الى أقصى ما يمكن أن يفتحوها . ثم يضمون شفاههم فجأة على الميم ثم يفخمون الراء شيئا فيقرعون الأذن ويصدمون الذوق صدما مزعجا وهذه الأبيات هى :

سمراء يا حلم الطفولة يا منية النفس العليله

كيف الوصول الى « حما   لك » وليس لى فى الأمر حيله
ان كان فى ذلى رضا   ك فهذه روحى ذليله

وليت الشاعر وضع نفسه مكان روحه فى هذا البيت :

ووسيلتى قلب به   مثواك ان عزت وسيله
فلترحمى خفقاته   لك واسمعى فيه عويله
قلب رعاك وما ارتضى   فى حبه أبدا بديله
أسعدته زمنا وروى   وصلك الشافى غليله
ما بال قلبك ضل عن   ه فما اهتدى يوما سبيله
وسبيلك الذكرى اذا   ما داعبتك رؤى جميله
فى ليلة نسج الغرا   م طيوفها بيد نحيله
وأطال فيها سهد كل   متيم يشكو خليله
سمراء يا أمل الفؤا   د وحلمه منذ الطفوله

ألا ترى معى أن هذا الشعر يسيل عذوبة ورقة وخفة روح وأنه غناء نفس محرومة حقا وأنه صالح للغناء لو حسن الغناء فى هذه الأيام .

وما من شك فى أن لشاعرنا الأمير طبعا خصبا وقلبا ذكيا وشاعرية ممتازة لو استطاع أن يفرغ لها ويمنحها من وقته وجهده وعنايته وأناته ما ينبغى لها اذن لبلغ من الشعر ولبلغ به من نفوس

القراء أقصى ما يريد وما أظن أنه يستطيع أن ينصرف عن هـــذا الشعر لأنه سيظل محروما دائما هذا اللون من الحرمان القاسى وسيضطر الى أن يسرى عن نفسه ويفرج عن قلبه بهذا الغناء ولقد أتيح له نجح حسن فى هذا الديوان ولكنى مطمئن الى أنه سيبلغ أضعاف هذا النجح فى ديوانه المقبل ان شاء الله .

أصداء النيل

أما اليوم فسأحدثك عن شعر جديد كل الجدة ، قديم مع ذلك ممعن فى القدم ، هو جديد لأن صاحبه معاصر يعيش الآن وهو فى ريعان الشباب ، ما أحسبه جاوز الثلاثين الا قليلا . وموضوعاته كلها معاصرة ، تتحدث عنها حين يلقى بعضنا بعضا ، يكتب فيها كتابنا وينظم فيها شعراؤنا وتضطرب بها خواطرنا . فهو يذكر مصر المعاصرة التى نعيش فيها ، ويذكر السودان المعاصر الذى يعيش فيه . وهو يذكر بلاد الانجليز التى أقام فيها أعواما . فعرف مدنها وقراها ومطرها وضبابها وبلا من خصال أهلها فنونا وألوانا . وهو يبكى هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأخيرة رغم اقامته فى بلاد الانجليز واتصال الأسباب بينه وبينهم . وهو يصف أشياء كثيرة يألفها الناس جميعا فى هذه الأيام . فليس فى موضوعات شعره شىء تنبو عنه طباعنا ، أو تنفر منه أذواقنا . ولكنه على هذا كله ممعن فى القدم لأنه يصطنع لغة وأساليب لا يذوقها الا الأقلون الذين يذوقون الشعر العربى القديم ، والقديم جدا ، هذا الذى نقرؤه للجاهليين والاسلاميين من شعراء القرنين الأول والثانى ،

ولابد من أن أتحفظ حين أذكر شعراء القرن الثاني . فشاعرنا لا يصطنع لغة أبى نواس ومسلم ومن اليهما وأساليبهم وانما هو يصطنع لغة الذين يؤثرون جزالة اللفظ والأسلوب منهم كبشار ومروان بن أبى حفصة وعسى أن يؤثر الغريب أكثر من هذين الشاعرين ومن يذهب مذهبهما وهو لا يتعمد ذلك وانما يدفعه اليه طبعه وذوقه وبيئته جميعا وهو لايحس العجز عن سلوك الطريق التى يسلكها أهل هذا العصر فى البلاد العربية ، أو فى المهاجر الأمريكى وانما يحس القدرة كل القدرة على ذلك . وقد جربه وأطال تجربته ولكنه صد عنه صدودا لأنه كرهه وضاق به ورأى أنه لا يلائم طبعه ولا ذوقه ولا مذهبه فى الجمال .

ذلك أنه بدوى النشأة بدوى الثقافة فى الطور الأول من حياته . درس اللغة العربية فأتقن درسها وتعمق الشعر العربى القديم كما لم يتعمقه أحد من المعاصرين وقرأ الشعر العربى فى العصور المختلفة ودرسه درس المتقن له ولكن شعرنا القديم وحده هو الذى استأثر بمكان الرضى من قلبه وعقله وذوقه جميعا . وقد خلق شاعرا دقيق الحس ثائر العاطفة حاد الشعور مرهف المزاج قوى الخيال ، ولكنه حين أراد أن يعرب عن ذات نفسه اعرابا يلائم طبعه وهواه سلك الى ذلك طرقا مختلفة فلم يعجبه من هذه الطرق الا نهج القدماء من شعرائنا . فآثرها وأمعن فيها كأنه خلق لها

وكأنها خلقت له . والعجيب من أمره أنه وفق من ذلك الى أروع ما يتاح لشاعر أن يبلغه من الاجادة والاتقان .. وأعجب من هذا أنه طوع الحضارة الحديثة للغته القديمة أو طوع لغته القديمة لهذه الحضـــارة الحديثة ، فلاءم بينهما ملاءمة لا تحس فيها نبـــوا ولا اعوجاجا .

وأنت تقرأه حين يصف مظاهر الحياة فى بلاد الانجليز فلا تجد فى وصفه تكلفا ولا تعملا وانما تراه يمضى مع طبعه الخصب فى يسر واسماح لا يشق عليه وصف ولا يعييه تصوير ، وانما يشق عليك أنت فى كثير من الأحيان أن تسايره أو تتبعه لأنك تشعر بالحاجة الى أن تقف لتفهم عنه أو لتبحث عن هذا اللفظ أو ذاك فى معجم من معجمات اللغة أو لترد هذا الأسلوب أو ذاك الى ما ألفت من صور التعبير . فأنت لا تقدم على قراءته الا اذا كنت من أولى العزم أولا ومن أصحاب العلم الدقيق العميق الواسع باللغة العربية وأسرارها وغريبها ، وأساليبها حين يلتوى بها الشعراء عن منهجها الواضح المألوف .

وليس فى هذا كله شىء من الغـــرابة . فقد قلت أنه بدوى النشأة والبيئة والثقافة فى الطور الأول من حياته وأضيف الى ذلك أنى لا أعرف معاصرا عربيا تعمق مثله درس الشعر العربى وأوزانه وقوافيه ودقائقه وموسيقاه . وهو قد درس هذا كله أوفى دراسة

وأشملها فى كتاب ضخم يقع فى جزأين عظيمين وهو كتاب « المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها » .

وقد وصفت الجزء الأول من هذا الكتاب منذ قريب من عامين. فأى عجب فى أن يكون صاحب هذا الكتاب مؤثرا بطبعه لمذهب القدماء فى شعرهم . وهو قد فتن بالشعر العربى القديم فتنة لا حد لها ولا غاية ، فهو ينبئنا بأنه قرأ الشعر الانجليزى على اختلاف ألوانه وعصوره فلم يجده قادرا على أن يثبت للشعر العربى . ولم يستثن من ذلك شعر شكسبير على غرابة الموازنة بين الشعر العربى والشعر الانجليزى وشعر شكسبير خاصة لأن الأمر مختلف بين الشعرين ولأن أسباب الموازنة بينهما لا تتصل ولا تستقيم . فلم يخطر لشاعر عربى قديم أن من الممكن أن يذهب شاعر بشعره مذهب شكسبير أو ملتون أو بيرون أو غيرهم من شعراء الانجليز والأوروبيين عامة .

كل شىء بين الشعرين مختلف والموازنة بينهما عبث من العبث. ولكن الافتتان بالشعر العربى قد ملك على شاعرنا أمره ودفعه الى هذا الغلو الذى لا ينتهى الى شىء . وقد آن لنا أن نصل الى شعر صاحبنا وأن نقف عنده وقفات قصارا تعطيك منه صورا الا تكن دقيقة كل الدقة فهى مقاربة أشد المقاربة . وأعترف بأنى أجد فى هذا شيئا من الجهد . مع أنى أحب هذا الشعر وأستعذبه

وأرضى عنه ولكن كما أذوق شعر جرير وأستعذبه وأرضى عنه . ولو كنت شاعرا لما سلكت طريق شاعرنا الأديب لأنى أوثر أن أصل الى قلوب الذين يقرأونني وأذواقهم .

واذا تكلفت أنا هذا الجهد لأقرب اليك هذا الشعر فلا أقل من أن تتكلف أنت هذا الجهد لتقرأ وتفهم وتذوق وتعلم آخر الأمر أن الشعر العربى القديم ما زال حيا فى بعض المواطن العربية . كان حيا فى أوائل هذا القرن حين كان الكاظمى رحمه الله ينظم قصائده الغر وهو حى فى هذه الأيام حين نقرأ هذا الديوان ودواوين أخرى لم ينشرها شاعرنا المجيد بعد . وكنا نقول ان شعراءنا الذين عاشوا فى أواخر القرن الماضى وفى الثلث الأول من هذا القرن من أمثال البارودى وشوقى وحافظ قد أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس فى تقليد العباسيين ، فكيف بمن يذهب مذهب الجاهليين والاسلاميين غير مقلد ولا متكلف .

واقرأ معى هذه الأبيات :

طربت لذكر النيـل اذ شط منزلى
بلنـدن حـولى كل أعجم رطـان

وهيجنى صـــوت البلابل صدحا
وأسراب طير ذى وصـيع وأرنان

ألم ترنى أصبحت فى النـــاس مفردا
وخـــان وما خنت المـــودة خـــلانى

وجربت من دهـــرى صروفا وزارنى
زرافات أحـــداث له بعـــــد أحدان

فراق أحبـــــــــــاء وثكل عشـــيرة
واخفـــاق آمـــال وهجرة أوطـــان

فما أوهنت مـــر الليـــــالى جلادتى
ولا عاصفات الدهر فللن صـــوانى

وأول ما يلاحظه أيسر القراء علما بالشعر العربى القديم هو هذه القافية التامة المطمئنة لهذه الأبيات . وكل من له المام بالأدب العربى يذكر حين يقرأها أو حين يقرأ البيت الأول منها شعرا قديما ينسب الى امرىء القيس جاء على هذا الوزن وعلى هذه القافية وأولـــه :

قفا نبك من ذكـــرى حبيب وعرفان
ورسم عفت آياته منـــذ أزمـــان

وما أشك فى أن شاعرنا قد نظر الى هذا الشعر القديم حين نظم هذه الأبيات أو هذه القصيدة التى اختار لنا منها هذه الأبيات. فبينه وبين شعره نوع من العهد يملكه الفن فلا يستطيع الا أن

يستجيب له ويكتب ما يملى عليه . فاذا انجلى عنه شيطان الشعر نظر هو فى هذا الشعر فأثبت منه ما يختار ومحا منه ما لا يختار .

وهو لا يكاد ينظم قصيدة جادة الا نظر على نحو من الانحاء الى نموذج قديم .

وانظر بعد ذلك الى البيت الثانى فسترى فيه ميلا ظاهرا الى الغريب فصوت البلابل الصادحة يثيره ويهيج عواطفه وحنينه الى وطنه . ولكن البلابل وحدها لا تكفيه . فهناك أسراب أخرى للطير بعضها ضعيف الصوت وهى ذات الوصيع . والوصيع صوت صغار الطير كما يقول هو فى شرح الديوان . وبعضها الآخر له أرنان وهو الصوت الرفيع . فانظر الى هاتين الكلمتين الوصيع والأرنان يرى الشاعر أنهما لفظان فصيحان لا غبار عليهما وهما من ألفاظ الشعر القديم فيقبل عليهما مبتهجا بهما ولا عليه أن يسيغهما القارىء المعاصر أو لا يسيغهما . فهو كغيره من ذوى الاصالة فى الشعر يفكر فى فنه ويستجيب له قبل أن يفكر فى قارئه وفيما يسيغ أو لا يسيغ .

وانظر الى البيت الثالث فسترى فى شطره الأخير أسلوبا ألفه الشعراء القدماء وعنى به النحويون عنايةشديدة . ولكن المحدثين لا يألفونه ولا يكرهون الاعراب عنه حين ينشئون الشعر والنثر . وذلك قوله : وخان وما خنت المودة خلانى .

يريد أن يقول : وخانه خلانى المودة وما خنتها أنا . فآثر الايجاز فى هذا الأسلوب الجميل كما فعل امرؤ القيس حين قال :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

أراد أن يقول : كفانى قليل من المال ولم أطلب كثيره .

وهذه الزرافات والأحدان فى البيت الرابع نعرفهما فى الشعر القديم ولا يكاد الشعراء المعاصرون يلمون بهما . والشاعر بالطبع يريد أن يقول ان الأحداث ألمت به مفردة ومجتمعة .

وفى البيت الأخير أنث مر الليالى لأن القدماء يفعلون ذلك فى شعرهم واضطر الى أن ينبهنا الى ذلك . واتخذ الصوان قافية له ايثارا لجزالة اللفظ ورصانته . وأى شىء أمتن وأرصن من الصوان . ولكن انظر الى ما كلفته هذه القافية من تشبيه نفسه بالصخور الصلبة التى لا توهنها أحداث الزمان . فهذا الشعر جزل رصين فيه ايثار للغريب من اللفظة والغريب من الأساليب وهو مع ذلك يؤدى به معانى قريبة كل القرب يسيرة كل اليسر . وأى شىء أقرب وأيسر من أن يذكر الغريب من أبناء النيل فى لندرة نهره العزيز فيطرب لهذه الذكرى ويحن للنيل ويهيج عواطفه غنـاء البلابل وأصوات صغار الطير وكبارها . ثم يدعوه هذا الحنين فى غربته الى أن يشكو انفراده ووحدته لا لأنه غريب فحسب ، بل لأن اخوانه

قد خانوا عهده ونسوا مودته وهو لهم ذاكر ولعهدهم وفى . على أنه لا يشكو الغربة وتضييع اخوانه للعهد والود فحسب وانما يشكو معهما هذه الأحداث التى ألمت به جماعات وأفرادا وهو يستقبلها ثابتا لها جلدا صبورا عليها .

كل هذه المعانى قريبة يسيرة كما ترى ، وهى جديرة أن تؤدى فى ألفاظ وأساليب قريبة يسيرة مثلها تبلغ القلوب فى غير مشقة ولا جهد . ولكن ماذا تصنع وصاحبنا قد خلق للحزن لا للسهل . وهو بالطبع يرى هذه الألفاظ والأساليب قريبة كل القرب يسيرة كل اليسر ويستطيع أن يقول لنا انكم تنكرون هذه الألفاظ وهذه الأساليب لأنكم لم تألفوها فى شعركم ولا فى نثركم ولا فيما تعودتم قراءته من الكتب والدواوين . وما عسى أن تقولوا لو أنى آثرت ألفاظ رؤبة والعجاج وأساليبهما . فلم أتح لكم أن تقرأوا شعرى الا مع مراجعة المعجمات وكتب النحو والغريب لتفهموا كل بيت من أبياته .

والحمد لله على أنه لم يفعل ولو قد فعل لكان انما ينشىء الشعر لنفسه ولأمثاله الذين يحصون .

وشاعرنا شديد الحب للنيل لا تكاد تخلو من ذكره قصيدة أو مقطوعة من شعره ، وهو يؤثر النيل على كل شىء ، ويؤثر الحياة فى وادى النيل على كل ألوان الحياة مهما تكن الظروف

وهو مع ذلك شاعر يشتاق الى النيل فيطرب لذكره ويحن اليه ما أقام في بلاد الانجليز . فاذا عاد الى النيل شاقته لندرة وما عرف فيها من علم وجمال وسحر . وأى غرابة فى ذلك . فالشعراء يرضون فيقولون خير ما يعمون ويسخطون فيقولون شر ما يعلمون . وقديما قال رسول الله : ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما.

وانظر الي أبيات أخرى من هذا الديوان يصف فيها الشاعر حنينه الى النيل ويصور فيه الطبيعة تصويرا جميلا رائعا مؤثرا فى النفوس حقا ويحذو فيها حذو امرىء القيس أيضا فى الوزن والقافية ولكنه لا يصطنع اللفظ الغريب الا قليلا :

بلندن مالى من أنيس ولا مال
وبالنيل أمسى عاذرى وعذالى
ذكرت التقاء الأزرقين كما دنا
أخو غزل من خدر عذراء مكسال
ينازعها كيما تجود وينثنى
وقد كاد محبورا مؤانس آمال
اذا الأبيض الزخار هاج عبابه
له زجل من بين جال الى جال

ترافقه من فوقه قــزع الطخـــا
فتحسبهن الطــير تهفو لأوشال
ويا حبذا تلك الســـواقى وقد غدت
بألحان عبرى ثرة العين مشــكال
ونخــل اذا ما البــدر أشرق خلفــه
أطل عــلى الرائين كالعنق الحــالى
وشــوك ســيال يلمع النــور فوقه
طرائق مثــل الذر يلمــع فى الآل
ألا ليت شعرى هــل أبيتن ليــلة
بكثبان دارى والأحبــة أحــوالى
وهــل أسمعن الدهــر تغريد طائر
وبالفجر ترجيع المؤذن والتــــالى

أترى الى وصفه لالتقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض وقد شبهه هذا التشبيه البدوى الذى بعد به العهد وحجبته عنا القرون لولا أنا نقرؤه فى الشعر القديم . فأحد النهرين عذراء مكسال والآخر يسعى الى خدرها كأنه امرؤ القيس فى لاميته المشهورة :

ألا عم صباحا أيها الطلل البـــالى
وهل ينعما من كان فى الصرر الخالى

وفيها يقول :

سموت اليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

أو كأنه عمر بن أبى ربيعة فى رائيته التى أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

وانظر اليه كيف وصف اصطخاب النيل الأبيض بأمواجه الزاخرة وقطع السحاب الرقيق من فوقه كأنها الطير تهفو الى الماء لتحسو منه . وكيف وصف السواقى وهى تبكى على الشاطىء بكاء الحزينة ذات الدموع الغزار . وانظر الى النخل وقد أطل البدر من خلفه فخيل الى رائيه أنه عنق قد أطاف به الحلى .

وانظر الى هذه الصورة الشعرية الرائعة وهى صورة شجر السيال يلمع النور فوق شوكه طرائق دقاقا كأنه الذر يلمع فى السراب .

ثم اسمع الى الشاعر كيف يتمنى ويسأل نفسه هل يتاح له أن يبيت ليلة على تلك الكثبان التى تقوم عليها داره حيث ينظر منها الى هذه الطبيعة الحلوة التى خالطت قلبه . وهل يتاح له أن يسمع ولو مرة تغريد الطائر أول الليل وآخر الصبح وصوت المؤذن

وصوت من يتلو القرآن من آخر الليل وعند أسفار الصبح .

وليس عليك بأس من كلمة الطخا فهو قد فسرها لك فى الديوان بأنها السحاب الخفيف والشاعر يحس احساسا قويا أنه غريب فى شعره أيضا لأنه يؤثر جزالة اللفظ ورصانة الأسلوب والمعاصرون لا يحبون هذه الجزالة وانما يكلفون بهذا الكلام الهين اليسير المهجن الذى لا تزينه الفصاحة الخالصة .

فاسمع له كيف يقول :

ومالك والجـزالة فى زمـان ... يحب به من القــول الهجين
تبين به وليس لـه سـميع ... وينظمه ســواك فلا يبين
فان ذوى الجـزالة قد طواهم ... لدى غـبرائه الزمن الخئـون

ولو قبل الشاعر منا لرددنا عليه بعض حزنه لأنه يستطيع أن يكون جزلا رصين القول رائع اللفظ والأسلوب دون أن يورط نفسه ويورطنا معه فى الطخا وفى السبنتاة وفى الوصيع وأمثالها من هذه الألفاظ الغلاظ التى تسجل فى المعجمات لتستعين بها على فهم النصوص القديمة . ولكن جريان الألسنة بها حتى فى أجمل الشعر وأروعه قد انقضى عصره منذ عهد بعيد .

ولغات الناس صورة لحياتهم فاذا اتخذوها وسيلة الى الفن تخيروا منها أصفاها وأنقاها وأحسنها مسا للسمع وموقعا من القلب وملاءمة للذوق .

وليس يكفي أن يقرأ الانجليزى شعر شكسبير ليتخذ ألفاظه وأساليبه نماذج يحتذيها ولا أن يقرأ الفرنسى المعاصر شعر راسين لينظم الشعر على مثاله ولا أن يقرأ الايطالى شعر دانتى ليصطنع ألفاظه وأساليبه التى كانت تجمل وتروق فى القرن الرابع عشر وما زالت الى الآن تجمل وتروق حين يقرؤها الممتازون من العلماء والأدباء ولكنها لا تقبل من كاتب أو شاعر معاصر .

واللغة العربية كغيرهامن اللغات تحيا مع الناس الذين يتكلمونها وتخضع لما يخضعون له من أطوار الحياة وخطوبها تغلظ حين تغلظ الطباع وتلين وتعذب حين تعذب الطباع وتلين .

وليحدثنى الشاعر المجيد كيف السبيل الى أن يفهم القارىء المعاصر ذو الثقافة المعتدلة من الأدب العربى مثل هـذا البيت دون أن يرجع الى المعجمات ويفهم ما تروى من الأمثال والشواهد من شعر جرير والذين عاصروه وأين نحن من جرير ومعاصريه

فظلت أروض النفس بعـد نفارهـا

وأكرهها حتى اسـتمر مريرها

أى الناس يستطيع أن يفهم هذا البيت اذا لم يكن من أساتذة الأدب الذين عرفوا دقائق اللغة وتعمقوا شعر القدماء من شعرائها . ولا سيما حتى استمر مريرها هذه وما على الشاعر لو قد آثر اليسر

فقال : حتى اشتدت قوتها وعرفت كيف تحتمل الأحداث وتصبر لها.

والبيت الذى يلى هذا البيت كيف السبيل الى فهمه دون الرجوع الى المعجمات :

على حــين قاربت الثــلاثين وانتمت

الى المــرء أحداث كثــير شــقورها

لفهم كلمة الشقور هذه . والشاعر نفسه يفسر لنا هذه الكلمة بأنها الأمور فما ضره لو اصطنع كلمة الأمور نفسها فأقام وزنه وقافيته ولم يغير من جمال الشعر شيئا :

ســكرى الشباب سبنتاة اللحاظ لهــا

فتــك بنفسى وخمر بين أوصــالى

وهذا البيت وكلمة السبنتاة خاصة فيه كيف يستطيع المعاصرون أن يفهموها دون الرجوع الى معجم من المعجمات ! وكيف السبيل الى أن يذوقوها بعد أن يفهموها !

وأشهد لقد صادفت هذه الكلمة فى شعر قديم رثى به عمر بن الخطاب رحمه الله فضقت بها أشد الضيق لأنى قرأت هذا الشعر فى ايطاليا ولم يكن لسان العرب قريبا منى وانما كان بينى وبينه البحر أو بينى وبينه السفر الى روما فى البيت المشهور :

وما كنت أخشى أن تكون وفــاته

بكفى ســبنتاة طائش الكف أخرق

والشاعر الذى يرثى عمر يذكر الغلام الفارسى الذى طعنه .

أما شاعرنا فيصطنع السبنتاة هــذه فى وصف عذراء حسناء قد أسكرها الشباب وأى بأس عليه لو اصطنع كلمة أخرى تؤدى معناه ولا تشق على الأساتذة والطلاب وأوساط الناس جميعا .

وعلى رغم هذا كله فشاعرنا فذ ما فى ذلك شك ليس فى ديوانه على طوله بيت واحد يمكن أن يطرح أو يهمل . وهو يعرف أحيانا كيف يعذب ويلين حين يعبث وحين يداعب الطبيعة أو يتحدث الى الأطفال فهو قد مارس التعليم وهو الآن أستاذ ولكنه مع الأسف حين يعبث لا يلبث أن يسأم السهولة ويضيق بها ويقول فى آخر مقطوعة من مقطوعاته : هذا كلام فارغ ونؤثر اطراحه .

وليست المقطوعة كلاما فارغا وانما أفرغها عنده أنها لا تشتمل على الطخا ولا على السبنتاة ولا على ما يشبهها من هذه الألفاظ التى هى الى نوادر أبى زيد الأنصارى أقرب منها الى أى شىء آخــر .

وللشاعر غناء رائع كنت أحب أن أقف عنده وأن أطيل الوقوف ولكن ان فعلت لم أفرغ ولم يفرغ القارىء ولم يجد هذا الحديث مكانه فى الجمهورية .

ومن حق كل مثقف فى الأدب العربى أن يقرأ هـذا الديوان فسيجد فيه متعة لا شك فيها وروعة قلما نظفر بها فى شعر معاصر ولكنه محتاج دائما الى أن يكون المعجم قريبا منه .

ولى بعد هذا كله عتب على الشاعر المجيد وعتب لا يخلو من مرارة ومن بعض ما يجد الصديق من خيبة الأمل . فما هـذا التعريض بمصر فى بعض شعره أو ما خوفه أن تستأثر مصر بالنيل من دون السودان ومتى خطر لذى عقل أن مصر يمكن أن تستأثر بخير دون جيرانها من قرب منها ومن بعد عنها .

والتاريخ لم يعرف مصر منذ أقدم عصورها الا مؤثرة عـلى نفسها لا تكره أن توسع عـلى غـيرها وان ضاق بها العيش . وما أعرف أن مصر استأثرت بشىء دون جيرانها فى يوم من الأيام والشاعر نفسه فيما أعلم مدين لمصر بالكثير فبعلمها عرف العربية وتثقف فيها وبلغ من الفقه بها ما بلغ .

والشعر الذى يغمز فيه مصر هو قوله :

وانى لأخشى أن أرى النيل فى غـد
شريعة مصر علهـا وانتهالهـا

ونحن الى واد خصـيب ومـنزل
سباسب تقـلى الناجيات اعتمـالها

نحن الى واد خصيب ومنزل

ونخل على شاطئيه أرخت ظلالها

ونبدل خطا بعد جنتنا التى

جنينا جناها وارتوينا زلالها

عفا الله عنك أيها الشاعر الصديق ما أكثر ما ذكرت خيانة الود ونقض العهد والاخلال بحق الاخاء . وهأنتذا تورط نفسك فى بعض ما أنكرت على من خان عهدك من الاخوان والخلان فاردد على نفسك بعض حلمك ولا تطع الهوى فيضلك عن سبيل الله واذكر قول الشاعر القديم :

اذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى

الى بعض ما فيه عليك سبيل

وأنا على رغم هذا كله أهنئك بشعرك الرائع وأتمنى أن يذوق منه قراؤك مثل ما ذقت وأن يجدوا فيه من الروعة مثل ما وجدت وان كان هذا على أكثرهم عسيرا .

فى الذوق الأدبى

عشت هذين اليومين الأخيرين فى عصر ما أحسب أن كثيرا من قرائنا اليوم يعيشون فيه بل ما أحسب أنه يخطر لهم على بال ، وهو القرن الثامن عشر الفرنسى . وأقول ان كثيرا من قرائنا — ولا بأس من أن أضيف اليهم شعراءنا وكتابنا — لا يعيشون فيه ولا يخطرونه لأنفسهم على بال لأنهم قلما يفكرون فى أمس وقلما يمعنون التفكير فى غد وانما هم يعيشون لا أقول لليوم الذى هم فيه بل للساعة التى هم فيها . وربما علقوا آمالهم بالغد لأنهم يرجون أن يكون خيرا من اليوم ثم لا يكادون يصنعون لهذا شيئا .. أما أمس فقد مضى بخيره وشره وبحلوه ومره وأصبح الرجوع اليه اضاعة للوقت كما أصبح التفكير فيه لونا من العبث . وحسبهم أنهم شقوا بالأمس القريب والبعيد أيام كانوا تلاميذ يحفظون التاريخ ويتهيأون للامتحان فيه ويرهقون أنفسهم به وبغيره من مواد الدراسة أشد ارهاق ويعاهدون أنفسهم فى بعض ساعات العناء على أن ينسوه ويعرضوا عنه متى وضعوا عن أنفسهم أعباء الدروس والامتحان .

ولم أعش فى سياسة القرن الثامن عشر ولا فى علمه ولا فى فلسفته وانما عشت فى أدبه وبين اثنين من أدبائه خاصة هما مونتسكيو وفولتير وربما لقيت أديبا ثالثا من أدباء ذلك العصر فكلفت به وأخذت نفسى بأن أعود اليه من غد وهو « ديدرو » .

وقد عشت بين هؤلاء الأدباء فى قراءة آثار ضئيلة جدا لهم ممتعة على ضآلتها كل الامتاع لأنها تدور كلها حول الذوق الأدبى . يتحدث بعضهم عنها رمزا فيترك العصر الذى يعيش فيه والبيئة التى يضطرب بين أهلها بل يزعم أنه ليس هو الذى يتحدث وانما يترجم عن يونانى قديم عاش فى القرن السادس قبل المسيح — وجعل للذوق الها وجعل له معبدا وجعل يتخير من يؤذن له فى الالمام بهذا المعبد والقرب من هذا الاله ومن يجب أن يقصى عنه اقصاء ويحظر عليه الدنو منه فضلا عن الولوج فيه .

وهذا الأديب هو مونتسكيو فى رسالة صغيرة جدا له تقرأ فى أقل من ساعة ولكنها تفرض عليك التأمل الطويل والتفكير العميق ساعات بل أياما . وأما الآخر وهو فولتير فيجعل للذوق معبدا كصاحبه ولكنه لا يترجم عن أحد ولا يعيش فى عصر قديم ولا يتحدث عن القدماء الا حين يحتاج الى أن يتحدث عنهم وانما يتحدث عن عصره وعن معاصريه والذين سبقوه قليلا فيأذن لبعضهم فى دخول المعبد ويرد بعضهم عنه ردا عنيفا ويملأ قلوب كثير من

الأدباء عداء له وسخطا عليه . وهو يكتب رسالته الصغيرة نثرا رائعا ولكنه يزينها بالشعر بين حين وحين وبمقدار ما يحرص مونتسكيو على ايثار العافية واتقاء المكروه يمعن فولتير فى الصراحة ويسمى الناس بأسمائهم ويرمى بعضهم بسهام حادة نافذة . أما الثالث وهو ديدرو فيدرس الذوق على اختلاف موضوعاته درسا فلسفيا تحليليا دقيقا .

وكان العصر الذى عاش فيه هؤلاء الأدباء مشبها للعصر الذى نعيش فيه من بعض الوجوه . كان فيه اختلاف عظيم بين الأدباء حول المثل الأعلى فى الفن الأدبى ، يراه بعضهم فى تقليد القدماء من اليونان واللاتين ويراه بعضهم فى تقليد الأدباء الفرنسيين الذين عاشوا فى القرن السابع عشر وأعطوا الأدب الفرنسى صورته الرائعة التى فرضت نفسها أو أرادت أن تفرض نفسها على الأدباء فى جميع العصور الفرنسية .

وآخرون يحاولون فى استحياء أن ينشئوا لأنفسهم أدبا جديدا يلائم ما يطمحون اليه من الحياة الجديدة ولكنهم لا يبلغون ذلك لأنهم لم يتهيأوا بعد لانشاء هذا الأدب وأولئك وهؤلاء يختصمون أشد الخصومة وأقساها . يختصمون فيما يمثل فى الملاعب وفيما ينشر من الكتب ويختصمون فى هذا كله بالكتب يؤلفونها وبالمقالات يكتبونها وبالأحاديث يديرونها بينهم فى الأندية والقهوات .

ولعل هذا التشابه بين العصر الذى عاش فيه أولئك الأدباء والعصر الذى عشنا فيه منذ أوائل هذا القرن هو الذى أغرانى بالرجوع الى تلك الآثار واطالة الوقوف عندها .

والذين يذكرون الربع الأول من هذا القرن لم ينسوا بالطبع تلك الخصومات العنيفة التى ثارت بين شباب الأدباء وشيوخهم حول المثل الأعلى فى الشعر أولا وفى النثر بعد ذلك . ولم ينسوا أن المصريين خضعوا لتيارين خطيرين من التيارات الأدبية كان أحدهما يأتيهم من الغرب الأوروبى وكان الآخر يأتيهم من الأدب العربى القديم الذى أخذ يحيا ويسيطر على النفوس والأذواق منذ أواسط القرن الماضى . ولعلهم يذكرون أن تلك الخصومات كانت خصبة حقا وأنها لم تمض مع رياح الصيف أو رياح الشتاء وانما تركت فى أدبنا العربى الحديث آثارا ما زالت باقية وان كان كل شىء يدعوها الى العفاء فى هذه الأيام . وحسب هذه الخصومات أنها أنشأت نثرا عربيا خالصا لم يفن فى المغرب الأوروبى ولم يفن فى أدب الجاهليين والاسلاميين والعباسيين وانما صور شخصية مصرية ممتازة من هذين الأدبين ثم أذاع هذه الشخصية فيما وراء حدود مصر من أقطار العالم العربى . وكان قوام هذه الخصومة الثورة على الفناء فى القديم العربى من جهة الشباب والاغراق فى المحافظة على هذا القديم من جهة الشيوخ . وكان أدباء الشباب

يقومون مقاما وسطا بين الغلو فى التجديد وبين الغلو فى المحافظة يستمسكون باللغة العربية الفصحى لا ينحرفون عنها ولا يعنفون بها ولكنهم يرون هذه اللغة ملكا لهم ولا يرون أنفسهم ملكا لها يطوعونها لما يريدون من أغراض الحياة الحديثة التى يحياها الناس والتى لم يعرفها القدماء ولكنهم لا يفسدون أصولها ولا يخرجون على قواعدها يستبيحون لأنفسهم أن يثوروا على المعجمات القديمة التى وقفت باللغة العربية عند القرن الثانى للهجرة وينكرون ما يحتاجون اليه من الألفاظ لا يجدون بذلك بأسا ولا يتحرجون من أن هذه الألفاظ ليست مسجلة فى هذا المعجم القديم أو ذاك فمن حقهم أن يسخروا اللغة لأغراضهم لا أن يسخروا أنفسهم للغة ومن الحق عليهم اذن أن يغنوها ويضيفوا اليها من جديد الألفاظ مالم يكن فيها . ثم يثورون كذلك على أساليب القدماء فى التعبير الشعرى والنثرى لا يلزمون أنفسهم أن ينظموا الشعر كما كان ينظمه الجاهليون والاسلاميون والمحدثون من شعراء العصر العباسى أو من شعراء الأندلس ولا يأخذون أنفسهم بأن يكتبوا كما كان يكتب ابن المقفع والجاحظ وغيرهما من الكتاب القدماء وانما يصطنعون من الأساليب ما يلائم قلوبهم وأذواقهم وعقولهم الحديثة من جهة وما يلائم حاجاتهم وما تثير هذه الحاجات فى نفوسهم من العواطف والخواطر والآراء . وهم على رغم ثورتهم

هذه لا يفرطون فى القديم وانما يحفظونه ويمضون فى احيائه يرونه من كنوزهم النفيسة التى لا ينبغى التقصير فى رعايتها وحمايتها وصيانتها من الضياع والفساد جميعا . كانوا يصلون القديم بالجديد ويلائمون بين ما كان وما هو كائن ويحاولون أن يلائموا بين هذا كله وبين ما سيكون فى مستقبل الأيام .

كانوا يرون أن الأمة العربية الحديثة لم تنشأ من غير شىء وانما نشأت من أمة قديمة وكانوا يرون أن الحديث طور من أطوار الحياة الشعبية وان هذا الحديث سيصبح قديما فى يوم من الأيام وسينشأ عنه حديث آخر وان الأمة الحية هى التى تساير الزمن وتتأثر بالأحداث تأثر من ينتفع بها ولا يغنى فيها وان تتطور حسب ما تمليه الظروف .

وكانوا يرون أن قدماء العرب قد أخطأتهم فنون من الأدب لم ينشئوها لأنهم لم يعرفوها وأن على المحدثين بعد أن عرفوا هذه الفنون أن يوطنوها فى بلادهم وأن يواصلوها فى لغتهم وأن يشاركوا فيها ويسهموا فى تنميتها وتطويرها كما يفعل أصحابها من الغربيين وهم من أجل ذلك حاولوا انشاء القصة الحديثة وحاولوا توطين التمثيل فى البيئة العربية ووفقوا من ذلك الى شىء كثير وكونوا لمصر المعاصرة ذوقا أدبيا جديدا قد ينكره القدماء لو ظهروا عليه ولكنه على ذلك عربى خالص لا شك فى عروبته

ومصرى خالص لا شك فى مصريته وملائم مع ذلك كل الملاءمة لأغراض الحياة المعاصرة على اختلافها . وكان قائلهم يقول ان قدماء العرب قد عرفوا حضارات الأمم القديمة فأخـذوا منها ما لاءم حاجاتهم وأضافوا اليه من عند أنفسهم ووطنوه فى بيئته العربية الخالصة وأهدوه بعد ذلك الى الانسانية فأعانوها على الحياة وعلى الرقى فى بعض العصور . وطوعوا اللغة ألفاظها وأساليبها لما نشأ لهم من الحاجات والأغراض فهم حين يجددون انما يسلكون سبيل آبائهم من قبل لا يأتون بدعا من الأمر ولا يخرجون على المألوف من مضى الأمم فى حياتها الى أمـام وقد انتصر أولئك الشباب فى أعقاب الحـرب العالمية الأولى انتصـارا لا ينكره ولا يشك فيه الا المحمقون ولم يكن لهم فى تلك الخصومات ولا فى ذلك الجهاد العنيف سلاح الا العزم والصبر والطموح والجد فى الدرس والحرص على أن يأخذوا من الثقافة القديمة والحديثة بأعظم حظ مستطاع لم يقصروا فى العلم بقديمهم وعسى أن يكون كثير منهم قد عرفه خيرا مما عرفه القدماء أنفسهم ولم يقصروا فى العلم بالحديث على اختلاف مصادره تعلموا من اللغات الأجنبية ما أتاح لهم أن يظهروا على علوم الغرب وآدابه وثقافاته المختلفة وفتحوا للأجيال الناشئة أبواب هذا كله ومهدوا لهم طرقه بمقدار ما استطاعوا . واذا أردنا أن نحدد هذا الذوق الأدبى الحديث الذى

أنشأه أولئك الشباب منذ أوائل هذا القرن الى أن كانت الحرب العالمية الثانية لن نجد فى ذلك مشقة ولا عسرا فهو يقوم على شيء واحد هو القصد والتوسط بين الغـلو فى المحافظة الذى ينتهى باللغة العربية الى الجمود ثم الى الموت وبين الغلو فى التجديد الذى ينتهى باللغة العربية الى الفناء فى اللغات الأجنبية أو فى الحياة الأجنبية أو فيما شئت من هـذه الأعراض التى تعرض للذين يخرجون عن القصـد فيغامرون فيفقدون قديمهم ولا يظفرون بجديد صحيح وانما ينتهون بلغتهم الى مثل ما تنتهى به المحافظة الغالية من الضياع والموت .

واقرأ ما شئت من آثار أولئك الشباب على اختلافها فستراهم دائما محافظين على الطريق الوسطى لا يسرفون على أنفسـهم ولا على قرائهم فى محافظة ولا فى تجديد وانما يأخذون من كلا الطرفين بمقدار .

كذلك كان الذوق الذى عاش عليه الأدب المصرى الحديث فى النصف الأول لهذا القرن ولكن الأحداث تحدث والنوائب تنوب فالام صار هذا الذوق الأدبى الحديث الى فناء أم بقاء ؟ مسألة فيها نظر .

* * *

كنت أسأل منذ خمسة عشر يوما عن الذوق الأدبى الذى عرفه المصريون فى النصف الأول من هذا القرن أصائر هو الى البقاء أم الى الفناء ..

وكان هذا السؤال لا يخلو من سرف ، فكل شيء يدل على أنه صائر الى تغير خطير هو بالفناء أشبه منه بالبقاء ولكن التفاؤل يغرى بالأمل .. ولم تخل مصر بعد من قلة تؤثر ذلك الذوق الأدبى وتدعو اليه وتود لو أشاعته بين القراء وبين الكتاب والشعراء أيضا .

ولابد من تسجيل حقيقة ما أظن أحدا يجادل فيها وهى أن الشعر المصرى الحديث أقل تطورا وأبطأ حركة من النثر ، فالناس لا يصطنعون الشعر للاعراب عما يضطرب فى نفوسهم من شئون الحياة اليومية . وهم لا يحررون الصحف شعرا ولا يكتبون فيما يريدون أن يكتبوا فيه حين يؤلفون الكتب شعرا أيضا وانما يصطنعون النثر فى هذا العصر كما اصطنعوه فى جميع العصور منذ تقدمت الحضارة لتأدية أغراضهم المختلفة والشعراء يطرفون أنفسهم ويطرفون قراءهم بالقصيدة أو الديوان أو القصة التمثيلية الشعرية حين يتهيأ لهم ذلك وتدفعهم اليه الدوافع وتحس به نفوسهم وطباعهم التى تختلف حظوظها من الخصب وقدرتها على الاجادة والبراعة .

ومن هنا كان الشعر المعاصر محتفظا بتلك المقاييس التى ألفها شعراؤنا فى أول هذا القرن لم يكادوا يتحولون عنها . وهناك تجارب للتجديد فى الشعر من حيث الأوزان والقوافى ومن حيث

الموضوعات والأساليب ولكنها لم تعد طور التجارب والمحاولات . لم يتقبلها أكثر الذين يقرضون الشعر ولم يقبل عليها أكثر الذين يقرأونه ولم يمض فيها أصحابها لأنهم لا يجدون عليها تشجيعا . ومن أجل هذا ظل الشعر المصرى المعاصر فى جملته كما عرفناه أيام الممتازين من شعرائنا لم يكد يتقدم خطوة الى أمام وأصابه شيء من الجمود والعقم لأن الدنيا تغيرت من حوله ولم يستطع هو أن يساير التغير ولا أن يستجيب له .

واذا أتيحت الاجادة لشاعر من شعرائنا المعاصرين فقل أن يضيف الى ما ورثناه عن شعرائنا القدماء والمحدثين شيئا ذا بال .

أما النثر فأمره مختلف جدا فهو قد ساير الحياة وتأثر بما أدركها من تطور وتأثر كذلك بما أصابها من قصور وعسى أن يكون قد أسرف فى تطوره وتأثر بأسباب القصور والضعف أكثر مما تأثر بأسباب القوة والازدهار .

ولابد من أن نلاحظ أن الذين طوروا الذوق الأدبى فى النصف الأول لهذا القرن لم يكونوا كما يظن كثير من الناس فى هـذه الأيام يعيشون فى البروج العاجية ولا يعتزلون الحياة الشعبية ولا ينأون بحال من الأحوال عن آلام الناس وآمالهم ولا يهملون قدرتهم وطاقاتهم ، وانما كانوا يعيشون مع الشعب بل يعيشون بالشعب وللشعب . يعيشون له لأنهم كانوا يعربون عن ذات نفسه

يصورون له آماله ليحرص عليها ويجد فى تحقيقها ويفتحون له آفاقا جديدة من الأمل ليسرع اليها ويمعن فيها ويصورون له آلامه ليبرأ منها ويضع عن نفسه أثقالها .

وأيسر القراءة فيما كانوا يكتبون تبين ذلك فى غير لبس ولا غموض .

فهم الذين صوروا له الاستقلال وزينوه فى قلبه .

وهم الذين بغضوا اليه الاحتلال وأثاروه على الانجليز .

وهم الذين كرهوا اليه الاستبداد وأطمعوه فى الحرية وأغروه بالالحاح فى طلبها .

وهم الذين أعدوه للثورة وأسخطوه على حياة سيئة كان يحياها وهيأوا ضميره ليسرع الى الخير حين يدعى اليه وينصرف عن الشر حين يرد عنه ويتقبل الاصلاح حين يعرض عليه .

وهم قاوموا الاستبداد ولقوا فى مقاومته ضروبا من الأذى وفنونا من النكر .

وهم قوموا المعوجين من الحكام وجدوا فى صرف الشعب عنهم وتزهيده منهم .

فعلوا كل هذا وتقبل الشعب منهم ما فعلوا واستجاب الشعب لهم حين دعوه واستمع لهم حين تحدثوا اليه . وآية ذلك أنه كان يقرأ لهم حين يكتبون ويسمع لهم حين يخطبون أو يتحدثون .

وهم على كثرة ما فعلوا وحسن ما أبلوا قد احتفظوا للأدب العربى بروعته ونضرته وأرسلت بعض الكتاب الى السجون وصادرت بعضهم الآخر فى رزقه . كل هذا الشر كان عقبة خطيرة فى سبيل الأدب المصرى الحديث أثناء الربع الثانى لهذا القرن .

والغريب أن الأدباء فى تلك الأيام قد استطاعوا أن يقهروا تلك الظروف وينفذوا بما أقيم أمامهم من المصاعب حيل بين أقلامهم وبين الحرية فى الصحف فأقبلوا على الكتب يؤلفونها ويستمتعون فى تأليفها بالحرية الكاملة لأن الوزراء وأعوانهم لم يكونوا يقرأون الكتب ولا يفرغون لها .

وكذلك كانت تلك الأيام السود أيام خصب للتأليف والانشاء الأدبى الرفيع . ومن الكتاب من عمد الى الرمز فى بعض ما كان يكتب فى الصحف وفى بعض ما كان ينشىء من الكتب . فداور السياسة حتى غلبها وقال للظالمين ما أراد أن يقول . وهذه الأحكام العرفية التى اتصلت منذ أعلنت الحرب العالمية الثانية الى الآن ولم ترفع فى هذه السنين الطوال الا فترات قصارا . والأحداث الكثيرة التى عرضت فصرفت الناس أو كادت تصرفهم فى بعض الأوقات عن الفراغ للانشاء والقراءة .

فاذا أضفت الى هذا كله أن التعليم العام لم يستجب لحاجات النهضة الأدبية وانما اقتضت ظروفه ألا يتقدم الا فى بطء شديد

واقتضت ظروفه أيضا أن يحسب القائمون على أموره حسابا أى حساب للغالين فى المحافظة والمسرفين فى الجمود والمبغضين لكل تطور أو تجديد . فظلت اللغة العربية وعلومها وآدابها تدرس للتلاميذ فى مدارس التعليم العام أثناء هذا القرن كما كانت تدرس للتلاميذ منذ أكثر من ألف عام .

وظل التلاميذ يسمعون لدروس أساتذتهم دون أن يحققوها أو يذوقوها ودون أن تقبل عليها قلوبهم أو تستسيغها عقولهم . فكانوا يرون أنفسهم مسخرين لهذه الدروس تسخيرا . وكانوا يرون الاقبال عليها شقاء والجد فيها عناء ثم يخرجون من المدارس وهم لا يقيمون ألسنتهم اذا تكلموا ولا يحسنون الاعراب عن نفوسهم اذا كتبوا لأنهم لم يتعلموا وسائل التعبير الصحيح الرائق بالكتابة أو الكلام .

فأى غرابة بعد هذا كله فى أن يقصر الشباب عن قراءة الأدب الرفيع أو ذوقه ، فضلا عن محاولة انشائه والمشاركة فيه .

وفى أثناء ذلك تطورت الصحافة تطورا خطيرا ، فأعرضت أو كادت تعرض عن الأدب بعد أن كانت تحبه وتكلف به وتتنافس فى نشره وتغرى بين الأدباء ليختصموا فى مشكلاته .. أعرضت عن الأدب وانصرفت الى الأخبار والاعلان والأحاديث اليسيرة القصار

التى تقرأ وتفهم فى غير حاجة الى تفكير أو تذوق أو أى نوع من أنواع الجهد ، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وانما شغفت الصحف بالصور وكثرت الصحف الأسبوعية التى تكتب للناس باللغة التى يتكلمونها وتكثر لهم من المغريات بقراءتها والمرغبات فى الاقبال عليها والتنافس فى شرائها .

فاذا أضفت الى ذلك ما كان من اغراء السينما ، ومن الكلام الفارغ الكثير الذى تصبه الاذاعة فى آذان الناس صبا فى كل ساعات النهار وفى كثير من ساعات الليل ، لم تنكر ما ظهر فى الذوق الأدبى من أعراض التغيير الذى يميل الى الضعف والانحلال لأنه آثر السهل على العسير وآثر من القراءة ما يعين على قطع الوقت ، وأعرض عن القراءة التى تكلف صاحبها الجهد فى الروية والتفكير والتى تحتاج الى الأناة والتمهل ولا يلائمها السرع والعجل .

صحف يومية جادة قد أعرضت عن الأدب اعراضا وآثرت أيسر ما يكتب ليقرأ فى أقصر وقت وأيسر جهد .. وصحف أسبوعية تطلع مع الشمس فى كل يوم على قرائها ، وهى تتحدث اليهم بلغة الشارع وتنشر لهم الصور المغرية وتسليهم بالفكاهات التى لا صلة بينها وبين الجمال الذى يستحبه الذوق .

فليس عجيبا بعد هذا كله أن يؤثر الشباب القريب منهم على

البعيد عنهم ، وليس عجيبا أن يرى كل قارىء فى نفسه القدرة على أن يكتب كلاما يسيرا قريبا كهذا الذى يقرأ مصبحا وممسيا وغاديا ورائحا .

واذا الشباب كلهم كتاب ، واذا كل من استطاع أن يجرى قلما على قرطاس يرى نفسه كاتبا ، فان نشرت له الصحف ما يكتب فهو الأديب الذى ذاع اسمه فى الآفاق وقرأته الألوف المؤلفة من القراء ، وان لم تنشر له الصحف ما يكتب فهو الأديب المغمور المظلوم الذى أهدر حقه وأنكر أدبه . ولم تظلمه الصحف وحدها ، بل ظلمه معها القراء أيضا لأن قراءته لم تتح لهم . ومن حقه أن يسخط على الناس جميعا ، ومن حق المظلوم أن يسخط على الظالمين وأحق الناس بسخطه عليهم هم الذين تنشر لهم الصحف ويراهم أقل منه براعة ، ويراهم مع ذلك قد ظفروا من الشهرة بما لا ينبغى لهم أن يظفروا به ، والسخط يدعو الى الحسد ، واذا كاتبنا المغمور المظلوم حاسد لكل كاتب يخلو له وجه صحيفة يومية أو أسبوعية .

واذا كانت الصحف تروج على هذا النحو ويقبل الناس على قراءتها الى هذا الحد ، فما يمنع أن تؤلف الكتب بنفس اللغة التى تكتب بها الصحف ، وما يمنع أن تذاع هذه الكتب فى الناس وأن تنشر عليهم فى مواعيد منظمة كما تنشر الصحف والمجلات . وما يمنع الناس أن يقرأوها مقبلين عليها راغبين فيها يستعينون بها

على قطع الوقت وعلى احتمال أثقال الحياة ، ويتسلون بها عما يعرض لهم من الأحداث وما يلم بهم من بعض ما يكرهون . وكذلك يتبذل الذوق ويتبذل معه الأدب وتسقط معهما اللغة ويدركها الفساد ، وفيم هذا العناء الكثير الذى يحتمله الأدباء المجودون . وفيم قراءة هذا الكلام الذى يشق على الكاتب أن يكتبه ، ويشق على القارىء أن يقرأه . ويشق على الذوق المبتذل أن يسيغه ، وابتذال الذوق والأدب وابتذال اللغة معهما لا يغير مع ذلك من الحياة شيئا .

فالشمس تشرق وتغرب والليل والنهار يختلفان والأحداث تجرى فيهما كما تعودت أن تجرى . والناس يسعدون ويشقون ويحزنون ويأسون كما كانوا يتعرضون لذلك كله حين كان الذوق مصفى والأدب رفيعا واللغة نقية مبرأة من الفساد .

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد وانما يتعقد شيئا فشيئا ، لأن بعض المذاهب تطرأ وتصل الى مصر ويجد فيها بعض الشباب الذين يكتبون ملاءمة لضعفهم فى اللغة وقصورهم فى الأدب وايثارهم لليسر فيستحبونها أولا ويكلفون بها ثانيا ، ويتعصبون لها آخر الأمر ويريدون أن تتسلط على الانتاج الأدبى والفنى والنقد جميعا .

ولكن حديث هذه المذاهب الأجنبية فى الأدب واقبال فريق

من شبابنا عليها واستمساكهم بها ، حتى بعد أن ضاق بها أصحابها ، حديث هذا كله يطول فلنرجئه الى الأسبوع المقبل ان شاء الله .

* * *

اذا أردت تحقيق التاريخ الأدبى للنصف الأول من هذا القرن فليس لك بد من أن تسجل ظاهرتين يحسن الوقوف عندهما وقفة قصيرة .

احداهما أن اللغة التى كان الناس يكتبونها كانت فى جملتها لغة فصيحة ربما انسل الخطأ اليها بين حين وحين ولكن الفصاحة كانت عليها أغلب وبها ألصق .

وكانت هذه اللغة مع ذلك تذهب مذهبين فى الأداء لما يريد الكتاب أن يؤدوه . يذهب الأدباء مذهب الارتقاء فى الأسلوب والارتفاع عن كل مبتذل من اللفظ والاحتياط فى غير الكلمات التى لا تسرف فى الغرابة فيقصر عنها الفهم ولا تسرف فى الاسفاف فيجفو عنها الذوق .

وكان أخص ما تمتاز به لغة الأدباء وأساليبهم الصفاء والفصاحة والوضوح مع ذلك. بحيث يستطيع أصحاب الثقافة العليا وأصحاب الثقافة المتوسطة والذين تقل حظوظهم من المعرفة أن يقرأوها ويسيغوها ، ويجدوا الراحة اليها وربما وجد كثير منهم الشغف بهـا .

وكان كتاب الصحف يرسلون أنفسهم على سجيتها ويجرون أقلامهم بما يواتيهم من الألفاظ والأساليب . لا يتعمدون انحرافا عن فصيح الكلام الا أن يتورطوا فى هــذا الانحـــراف تورطا أو يضطروا اليه اضطرارا .

وكان الأدباء يصطنعون لغتهم تلك فيما ينشئون من الشعر والنثر وما يؤلفون من الكتب .

وكانت الصحف تتنافس فى آثار هؤلاء الأدباء تنشرها بين حين وحين تتجمل بنشرها وتتقرب به الى قرائها الذين يحبون رائع القول ويودون لو أتيح لهم بين حين وحين فى شيء من اليسر لا يكلفهم عناء ولا يرزؤهم فى أموالهم شيئا .

فكانت هناك اذن اللغة العليا واللغة المتوسطة ، كلتاهما فصيحة ، ولكن حظهما من العناية والتجويد يختلف اختلافا ظاهرا تدعو اليه طبيعة الأدب من ناحية وطبيعة الصحافة من ناحية أخرى .

فالأديب محتاج الى المهل والأناة والى الروية والتفكير والى ايثار الجمال والصدق حين يشعر أو يفكر وايثارهما أيضا حين يعرب عن عقله وقلبه ، لا يتحكم فيه الوقت ولا تعنف به الضرورات المختلفة .

والصحافة محتاجة الى السرعة ومحتاجة الى النظام الدقيق

ومحتاجة بعد هذا كله الى أن تملأ الأنهار التى أخذت نفسها بأن تقدمها الى قرائها فى كل يوم أو فى كل أسبوع .

والأديب يكتب للذين يسيغون الأدب ويقولونه ويجدون فى قراءته لذة ومتاعا .

والصحفى يكتب لكل قارىء أو قل يكتب لكل انسان . فما أكثر ما يجلس الأميون الى هذا القارىء أو ذاك ويستمعون لما يتلى عليهم .

وليس بد للصحفى من أن يكتب لهؤلاء جميعا كلاما يفهمونه حين يقرأونه أو يسمعونه ولم تخل مصر مع ذلك من صحف أسبوعية فكاهية تتحدث الى الناس بلغة تلائم ذوق الشعب لا تكلف فى ألفاظها ولا تأنق فى أساليبها ولا تعمق فى موضوعاتها وانما الحديث الساذج الذى يديره الناس بينهم فى أعمالهم حين يعملون وفى أسمارهم حين يسمرون .

وكان الناس جميعا يقرأون هذه الصحف ويجدون فيها شيئا من متاع لأنها تصور لهم فكاهة الشعب ساذجة حلوة وعبث الشعب بقادته وحكامه حين يخلو بعض الناس الى بعض .

وكان الأدباء أنفسهم يتفكهون بقراءة هذه الصحف ويتفكهون بالحديث عنها حين يلتقون لا يأخذونها مأخذ الجد وانما يضعونها

حيث وضعت نفسها ، فأصحابها لم يريدوا الا التفكهة والتسلية والأعراب عما يضطرب فى نفوس العامة بنفس اللغة التى تنطلق بها ألسنتهم حين يتحدث بعضهم الى بعض .

وليس بد أيضا من الاعتراف بأن الثورة المصرية بالاحتلال الانجليزى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى قد فتحت للغة العامية أبوابا واسعة فاندفعت منها وكادت تغلب بعض الأدباء من الشباب على أدبهم .

فهذا التمثيل المضحك الذى راج واشتدت العناية به وعظم الاقبال عليه وكثر الحديث عنه والتفكه بما يجرى فيه من النوادر والمضحكات قد كان يؤثر باللغة العامية وينفذ بها الى قلوب الكثرة الكثيرة من النظارة .

وقد كانت الثـورة شعبية وكان من الطبيعى أن تكون لها أصداء شعبية أيضا ، وكان التمثيل من أقوى هذه الأصداء ان لم يكن أقواها .

ولم يكن الأدباء يضيقون بهذا التمثيل ولا يترفعون عنه وربما أحبه بعضهم أشد الحب وأكثر الاختلاف الى ملاعبه يأنس فيها الى هذا الروح الشعبى الحلو ويجد فيها كنوزا من عواطف الناس ومشاعرهم . قد تنفعه أعظم النفع حين يعود الى أدبه الرفيـع فيسجل فيه بعض عواطف الناس وخواطرهم وأحكامهم . وكان

هذا كله طبيعيا لا يأتى عن تكلف ولا يصدر عن اعتداد بالنفس ولا يتأثر بجهل اللغة العربية وأدبها وانما كان الشعب ثائرا فأعرب بعض أبنائه عن عواطفه وأهوائه كما كان يعرب عنها هو فى أنديته وأسماره ومواقفه المختلفة .

ولا كذلك ما انتهى اليه تطور الذوق حين انتصف هذا القرن أو حين أوشك أن ينتصف وانما جدت ظواهر لم تكن معروفة أو لم يكن يعرفها الا الأقلون .

وهذه الظواهر جاءت من بعض المذاهب الأوروبية التى وصلت الى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وصلت اليها فى الكتب والصحف ووصلت اليها من طريق الاذاعة أيضا ، ووصلت اليها من طريق الرحلات والأسفار التى كانت تتاح لبعض الشباب فيلقون الناس ويسمعون منهم ويقولون لهم ويرون الكتب والصحف فيقرأون وتصادف هذه القراءة أهواء فى نفوسهم فيرضون ويستزيدون .

وهذا أيضا طبيعى : فالكتب والصحف انما كتبت وأذيعت لتقرأ وليتأثر بها من تصادف هوى فى نفسه .

وأخص ما تمتاز به هذه المذاهب الأدبية انها تقيم الأدب على مقاييس لم يكن الناس يعرفونها فى أوروبا قبل هذا القرن ، ولم تكن تخطر للمصريين على بال قبل الحرب العالمية الثانية .

فالأدب لا يقاس بالجمال ولا يقاس بارضاء الذوق ولا يقاس بتعمق المعانى والآراء وهذا المذهب الفلسفى أو ذاك ، وانما يقاس قبل كل شيء بالاعراب عن حاجة الشعوب الى ما يقيم حياتها المادية قبل كل شيء ..

ذلك أن الجائع والظمآن والذى لا يحسن اتقاء الآفات الطبيعية أو لا يجد السبيل الى اتقائها لا تعنيه فلسفة ولا تعنيه حكمة ولا يحفل بذوق ولا يهمه أن يتعمق هذا المعنى أو ذاك ولا يلذه أن تتخير له روائع الكلام وانما يعنيه قبل كل شيء أن يكشف عنه الضر ويزول عنه الجوع والمرض ويأمن من آفات البرد والقيظ ويظفر بهذا الشعور الذى حرمه الناس أجيالا طوالا وهو الشعور بالعدل الشامل الكامل الذى لا يتاح لفريق دون فريق ولا يقصر على طبقة دون طبقة وانما يتناول الناس جميعا لا يستثنى منهم فرد ولا جماعة .

وربما كان شاعرنا العربى القديم من شعراء القرن الرابع أو الخامس للهجرة قد صور حاجة الشعب الى هذا الشعور بحقه فى الأمن من البؤس والحرمان فى هذين البيتين المشهورين اللذين تداولتهما الأجيال العربية الى الآن فى مجالس التعليم ولم تجد فيهما الا فكاهة حلوة مع أنهما يصوران المرارة المرة والبؤس البئيس ، وذلك حين يقول :

اخواننا طلبوا الصبوح بسحرة بعثوا رسولهم الى خصيصا
قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبـة وقميصا

قوم اذن قد أتاحت لهم الحياة أن يفرغوا للهو وأن يصطبحوا قبل مطلع الفجر وهم يطلبون الى صديقهم أن يشاركهم فى لهوهم ويقترح عليهم بعض ما يشتهى من ألوان اللذة . ولكن صديقهم بائس لا يستطيع أن يخرج من بيته لأنه لا يجد الكساء . فليس له مطمع فى اللهو ولا أرب فى اللذة وانما هو فى حاجة الى قميص يفيضه على جسمه العارى وجبة يتقى بها قسوة الجو . .

والذين درسوا علوم البلاغة يذكرون هذين البيتين ويذكرون مثلا من أمثال التشبيه طالما أضحكهم على مرارته . وذلك حين يذكر أصحاب البيان تشبيه الجائع وجها جميلا بالرغيف .

وفى أمثال العرب الجاهليين مثل يصور هذه الحاجة تصويرا رائعا على غرابته .

فقد أقبل اعرابى من سفر بعيد فلم يكد يصل الى خبائه حتى بشر بغلام ولد له وأقبل النساء عليه بهذا الطفل يعرضونه عليه فصاح مغضبا : ماذا أصنع به آكله أم أشربه ! قالت امرأته « غرثان فاربكوا له » تريد أن تقول : جائع فهيئوا له طعاما .

فهذا الأعرابى الذى هلك الجوع عليه أمره كله لم يكن فى

حاجة الى أنه يبشر بهذا الغلام ولا الى أن يراه وانما كان قبل كل شيء محتاجا الى أن يدفع عن نفسه ألم الجوع .

هذه الحاجة الطبيعية التى يجدها الناس جميعا ولا يمس لذعها وألمها الا المحرومون المعذبون لم يكن الأدب يخلص لها من دون سائر الحاجات التى يشعر بها الناس ، حاجات القلوب والعقول والأذواق . فضلا عن حاجات الأجسام الى فنون من الترف واللين .

وقد قوى الشعور بهذه الحاجة وقوى الشعور بهذا الحرمان الذى فرض على كثرة الناس وجدّ بعض الفلاسفة فى التماس أسبابه ومحاولة الطب له بتحقيق العدل الكامل والمساواة العامة .

ولم يكد أصحاب هذه الفلسفة ينتصرون حتى اتخذوا من فلسفتهم مقياسا لكل شيء ، مقياسا للأدب وللفن وللعلم والفلسفة وللسياسة ونظم الاجتماع .

والى هنا يستطيع الأدب أن يستقيم مع هذه الفلسفة . فهو مهما يكن من أمره لم يوجد فى حياة الناس عبثا وانما وجد لأن الناس احتاجوا اليـه فأوجدوه .. أحسوا فأعربوا عما يحسون واضطربت فى قلوبهم ونفوسهم الخواطر والعواطف والأهـواء فأعربوا عنها وصوروها على أنحاء مختلفة من الاعراب بالأدب مرة وبالفن مرة وبالموسيقى مرة أخرى . وهـذه الفنون ومنها

الأدب تتطور بطبعها كلما تطور الناس الذين يعربون بها عن ذات نفوسهم .

فلا غرابة اذن فى أن يتجه الأدب والفن الى تصوير العدل الشامل والمساواة الكاملة حين يصبح العدل والمساواة أساسا لحياة الناس ، وانما يأتى الخطر كل الخطر على الأدب والفن حين يراد الأدباء والمصورون والموسيقيون وغيرهم من أصحاب الفنون على أن يخضعوا لسلطان دقيق منظم يوجههم هو الى ما يريد لا الى ما تريد طبيعة العدل أو طبيعة المساواة أو حاجة الناس الى أن يخلصوا من الحرمان بل الى أن يصبح الأدب والفن أداة للاعلان ونشر دعوة بعينها . هنا يفقد الأدب ويفقد الفن أخص خصائصهما وهو حرية الأديب وحرية الفنان .

فالأدب الذى ينشئه صاحبه عن أمر السلطان سواء أكان هذا السلطان متمثلا فى فرد أو فى جماعة ليس أدبا ولا فنا وانما هو صدى لما يصدر الى منشئه من أمر فهو لا يصدر عن القلب ولا عن العقل ولا عن الذوق وانما ينزل على الأديب والفنان لا من اله الفن كما كان اليونان يقولون ولا من شيطان الفن كما كان العرب يقولون أيضا ولكن من فرد أو جماعة من الناس أتيحت لهم القوة فسخروه لما يشتهون لا لما يشتهى .

وليس أدل على ذلك من هذه الثورة التى يشهد الناس بعض

مظاهرها الآن فى بعض البلاد الأوروبية . هناك حيث تقوى المطالبة بالحرية وبحرية الفن خاصة .

ولست أدرى أيقرأ أصحاب هذه المذاهب من شبابنا ما يصل الى مصر من أنباء هذه الثورة ومن أنباء الثورة الأدبية منها خاصة أم لا يقرأون ، واذا كانوا يقرأون هذه الأنباء فهل يغيرون من مذهبهم فى الفن أم هل يظلون على مذهبهم القديم لا ينحرفون عنه قليلا ولا كثيرا . والتعقيد الذى أصاب أصحاب هذا المذهب من أدبائنا يأتيهم من أنهم لم يحسنوا درس اللغة العربية ولم يتح لهم اتقان التعبير بها عما يريدون وفى طبائعهم خصب وفى نفوسهم استعداد قوى وفى قلوبهم وعقولهم ما يريدون أن يقولوا للناس ، وليس لهم بد من أن يقولوه لأنهم خلقوا ليكونوا أدباء وحرموا مع ذلك أيسر الوسائل الى التعبير الأدبى . وقرروا فى أنفسهم أن أوجب الواجبات عليهم أن يكونوا صادقين حين يكتبون وأخطأوا فهم الصدق على وجهه فظنوا أنهم لا يستطيعون أن يصوروا حياة الشعب الا اذا كتبوا باللغة التى يتكلمها الناس فى أداء أغراضهم اليومية فاتخذوا اللغة العامية لغة لأدبهم فأضاعوا قيمته وغضوا منه وجعلوه أدنى الى الابتذال منه الى الارتفاع الذى ينبغى للفن الجميل .

وليس صحيحا أن الصـــدق يفرض عليهم الكتابة فى العامية فبين أدباء الشباب أفراد ممتازون يصورون حياة الشعب أصدق

تصوير وأبرعه وأروعه دون أن ينحرفوا عن اللغة الفصحى التى هى وحدها لغة الأدب والتى هى وحدها القادرة على أن تثبت لتعاقب الأجيال واختلاف اللهجات بين الشعوب التى تتكلم اللغة العربية فى أقطار الأرض كلها .

ويكفى أن أذكر لهم أديبنا البارع نجيب محفوظ فلست أعرف أصدق منه تصويرا لحياة الشعب المصرى ولست أشك فى أن كل قارىء أو سامع لقصصه يفهم عنه فى غير مشقة مهما تكن بيئته ومهما يكن حظه من الثقافة والتعليم وهو على ذلك يكتب بلغة فصيحة لا غبار عليها ويرتقى بقصصه أحيانا الى منازل الشعر الرفيع دون أن يشق على قارىء أو سامع فى شىء مما يكتب أو يقول .

ليس حتما اذن أن يكتب الأديب باللغة العامية ليكون صادقا وليس حقا أن اللغة العامية تستطيع أن تكون لغة الجمال الأدبى الرفيع ، وليس حقا أن تصوير الحاجة الى العدل والمساواة يفرض على الأدباء الاسفاف والابتذال . وقديما قيل خير الأمور أوسطها .

فليعد أدباؤنا من الشباب النظر فى قضية الأدب وما أشك فى أنهم سيلائمون بين ما يريدون من حماية الشعب من الحرمان وبين الأدب الرفيع وسيهتدون ان صدقت النيات وصحت العزائم الى قصد السبيل وسيعيدون الى الأدب العربى المعاصر نضرته التى أوشكت أن يدركها الذبول .

هارب من الأيام

أعترف بأن عنوان هذه القصة وقع من نفسي موقع الغرابة . فليس الهرب من الأيام شيئا يتاح للأحيـاء مهما يفعلوا الا أن يفرضوا على أنفسهم الموت أو يفرضوا عليها الفعلة المطلقة المطبقة .

فالإنسان الحى أسير الزمن يدخل فيه منذ تشيع الحيـاة ولا يخرج منه الا حين تنقطع الأسباب بينه وبين الحياة أو حين يضطر نفسه الى الذهول الشامل الذى يصرفه عن كل شيء ويقطع الصلة أو يخيل الى صاحبه أنه يقطع الصلة بينه وبين الزمان والمكان وما يتعاقب فيهما من الأحداث وما يلم بالأحياء والأشياء بينهما من الخطوب .

وأنا أقدر أن الهارب من الأيام فى هذه القصة هو هذا العمدة الذى جعله الكاتب محورا تدور الأحداث حوله والذى انتهى فى آخر القصة الى أن يترك منصبه ويهجر القرية التى كان يدير أمرها متصلا أو موقوتا ، ولكن هذا العمدة لم يهرب من الأيام وانما هرب من منصبه وهرب من القرية التى لم يحسن القيام عليها .. ورحم الله أبا العلاء الذى أنبأنا بألا مهرب من الزمان للكائن الحى ما دام حيا وذلك فى بيته الرائع الخالد :

ولو طـار جـبريل بقيـة عمـــــره

من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

وأكبر الظن أن هذا العنوان انما راق المؤلف لأن فيه شيئا من الغرابة والغموض يروعانه هو أولا ويروعان كثيرا من قرائه بعد ذلك وان كان شيء منهما لم يرعني . ولو انى أطعت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة ولحرمت نفسى متعة قيمة حقا . فقد أتيح للأستاذ ثروت أباظه حظ حسن جدا من الاجادة مكنه من أن يفرض عليك المضى فى القصة اذا بدأتها حتى تبلغ غايتها بل مكنه من أن يفرض على أنا قراءتها مرتين لم أباعد بينهما فى الزمان لأنى وجدت فيها روحا عذبا يجـرى فى ألفاظها وأسلوبها وترتيب الأحداث فيها واستخراج بعض هذه الأحداث من بعض فى غير تكلف ولا تصنع ودون أن يعنف بالقارىء أو يثير أمامه ضروب المشكلات التى تقفه عن القراءة هنا أو هناك .

وانما القارىء يمضى فى قراءته مضيا يسيرا يوحى اليه بأن الكاتب نفسه قد مضى فى كتابة قصته مضيا يسيرا أيضا لم يجد فيه شيئاً من عناء أو هو قد أوجد العناء كل العناء ، ولكنه استأثر به ولم يظهر القارىء على شىء منه شأن الكاتب المطبوع الذى يجد ويكد ويشقى بالجد والكد فيما بينه وبين نفسه ليقدم الى

قارئه آخر الأمر أثرا أدبيا قيما ينعم بقراءته دون أن يحس فى هذا النعيم جدا أو كدا أو شقاء .

وما أظن الواقعيين بين كتابنا من الشباب يرضون عن هـذه القصة كل الرضى فهى لا تصور الواقع كما يصورونه وكما يحبون أن يصـوره غيرهم من الذين يعرضـون لكتابة القصة خاصـة أو للانشاء الأدبى بوجه عام .

ذلك ان القصة واقعية فى تفصيلها ولكنها ليست واقعية فى جملتها ولا فى غايتها .

فهى تعرض عليك قرية هادئة مطمئنة ينعم أغنياؤها بالعيش ويشقى فقراؤها بالعيش أيضا ولكنهم قد تعودوا شقاءهم وألفوه فهم لا يشكون منه ولا يظهرون الضيق به قد عرفوا أن من طبيعة الحياة فى قريتهم أن ينعم الأغنياء ويبتئس الفقراء وهم لا يريدون ولا يستطيعون أن ينكروا طبيعة الأشياء ولا أن يضيقوا بما قسم الله بينهم من الحظ .

واسم القرية نفسه يوحى بهذا فهى قرية السلام .

وأنت ترى أول ما ترى عمدة القرية وقد أفاق من نومه آخر الليل وأول النهار وهو عجل يحرص على شيئين أشد الحرص أولهما أن يصلى صلاة الفجر قبل أن يفوته وقتها وهو من أجل ذلك

يتعجل الخادم لتحضر له وضوءه قبل أن تفوته الصــلاة وقد ازدحمت فى نفسه أمور الدين وأمور الدنيـــا ما أباح الله منها وما حرم ، يرى هذا كله طبيعيا لا غرابة فيه فهو يجرى أثنـــاء الوضوء لسانه بهذه الأدعية التى يرددها المسلمون حين يتوضأون ولكنه يقطع هذه الأدعية بين حين وحين بالسؤال عن زوجه وعن ابنته وعن صالح هذا البائس الذى وعده برشوة من الدجاج لأنه أصلح الأمر بينه وبين زوجه التى كانت مغاضبة له .

أما الأمر الثانى الذى يحرص عليه أشد الحرص فهو ارضـــاء حاجته الى الافطار وهو يسأل عما يقدم اليه اذا أتم صلاته من الألوان والخادم تنبئه بذلك فى شيء من التفصيل كأنها تريد أن تثير نهمه وكأنها تستحضر ما سيصيبها من الطعام اذا فرغ العمدة من افطاره .

والعمدة يؤدى صلاته ويستقبل طعامه تحمله اليه ابنته درية ذات الجمال الرائع والحسن البارع والرجل فرح بطعامه مبهور بجمال ابنته لا يخفى حرصه على أن يجد لهذه الفتاة النضرة زوجا غنيا موفورا ولكن صوتا يرتفع بالدعاء من وراء النافذة هو صوت كمال هذا البائس الذى يتكفف الناس ويصيب طعامه اذا أصبح كل يوم فى بيت العمدة وهو البطل الأول من أبطال هذه القصة تتكشف عنه الأحداث فجأة فهو ذليل يدعو للناس جميعا بالثراء والسعادة

وطول العمر ليظفر منهم بالعطاء القليل حينا وبالزجر والانتهار أحيانا وبالسخرية والازدراء دائما وهو حاقد أشد الحقد على هؤلاء الأغنياء الذين يعيشون فى السعة وينعمون بطيبات الحياة على حين لا يجد هو ما يقيم أوده الا بالجهد والمشقة وابتذال ماء الوجه والالحاح فى مسألة الكرام والبخلاء .

وهو يطوف فى القرية منذ يصبح الى أن يمسى لا عمل له الا أن يستجدى من جهة وينبىء أهل القرية بما يجرى فيها من أحداث الخير والشر ومن شئون الموت والزواج خاصة . وهو لا يصيب صدقة من أحد الا استنزل عليه الخير بلسانه وتمنى بقلبه أن تغوله الغوائل وأن تصب عليه الخطوب . وهو يشعر بأنه على حظ من القوة فى جسمه ومن الذكاء فى عقله وبأنه أجدر بالغنى والسعة من هؤلاء الأغنياء الذين يتكففهم والذين يستأثرون من دونه بالنعيم .

كذلك يقضى نهاره فاذا جنه الليل مضى الى جماعة من الرفاق يجتمعون عند أحدهم على الحشيش فيجلس بينهم خادما يتملقهم ويأخذ بحظه مما هم فيه . وهو لا يقبل كل صباح على بيت العمدة ليفطر فحسب بل ليستمتع كذلك من فتاة البيت بنظرة يرفعها اليها ونظرة أخرى تلقيها الفتاة اليه . فهو لهذه الفتاة محب وهو بها كلف مشغوف ولكنه يائس وأين هو منها وأين هى منه . انما مكانه

منها مكانه من الشمس لا يستطيع أن يرقى اليها ولا تستطيع الشمس أن تنزل اليه .

وكما صور الكاتب هذا الشخص الأول من أشخاص القصة تصويرا دقيقا كل الدقة ، رائعا كل الروعة فهو قد صور سائر أشخاص القصة على هذا النحو من الدقة والتحقيق . فهذا العمدة الذى يأمر فى بيته وينهى ويأمر فى قريته وينهى أيضا يهابه الناس جميعا ويشعر هو بهيبتهم له واشفاقهم منه . هذا العمدة نفسه خائف وجل من المأمور يرهبه ويتملقه ويتقى شره ويبتغى رضاه أكثر مما يعمل معه أهل القرية .

وهو يقبل الرشوة من الناس ويغريهم بتقديمها اليه ولكنه هو أيضا يرشو المأمور ويحسن اغراء المأمور له بالرشوة . فهو يأخذ ممن دونه ويعطى من فوقه وهو بذلك راض واليه مطمئن وهو يدير أمور القرية على هذا النحو من الأخذ والعطاء يخيف ويخاف ويأخذ الرشوة ويعطيها . وكل ما يعرض عليك الكاتب من صور للأشخاص والأشياء دقيق متقن على هذا النحو .

فالقصة من هذه الناحية لا تعرض عليك الا صورا واقعية يعرفها كل من عرف القرى فى بلادنا ولا سيما فى بعض الأوقات وفى بعض الظروف .

ولكن القصة لا تلبث أن ترقى عن الواقع شيئا . فهذا البائس المتكفف الذى أذله البؤس وأكل قلبه الحقد لا يتمنى شيئا كما يتمنى أن يصبح غنيا موفورا ورث حياته البائسة هذه عن أبيه وورثها أبوه عن جده لكنه يطمع فى أن يكون خيرا من أبيه وجده. وهو لا يجد الوسائل الى الغنى الا أن يصبح فاتكا يقتل ويسرق ويروع الآمنين . وهو لا يسأل الله الا شيئا واحدا هو أن يتيح له أداة من أدوات الفتك .

وهو يلتمس الوسيلة الى هذه الأداة فلا يجدها حتى يظفر بها ذات ليلة فى مجلسه ذاك مع رفاقه أولئك على الحشيش فبين هؤلاء الرفاق فاتك معروف وهو منصور الدفراوى الذى قتل فاتكا مثله منذ أيام بأمر من كبير يعيش فى قرية مجاورة . ورفاقه يسألونه فى ليلتهم تلك كيف قتل صاحبه وكيف أفلت من النيابة وكيف أخفى سلاحه ويعرفون منه بعد الحاح فى السؤال أنه أخفى السلاح فى قبر أخته هناك فى تلك المقبرة التى يعرفونها ولا يسمع كمال هذا الحديث حتى يمتلىء قلبه رضى وأملا .

وفى القرية مأذون صوره الكاتب فبرع فى تصويره فهو جماع للمال حريص عليه يؤثر التفريق بين الأزواج على الجمع بينهم لأنه اذا فرق بين زوجين أخذ أجر الطلاق ثم أتيح له أن يزوج الرجل وأن يزوج المرأة فيأخذ على كل زواج أجرا . فالطلاق أربح له

وأجدى عليه من الزواج اذن وهو لا يجمع بالزواج بين اثنين الا تمنى أن يكون يوم التفريق بينهما قريبا . وكلما وقع اليه شيء من مال أضافه الى ما ادخر ثم هو لا يأمن على ماله الخزائن أو المصارف وانما يحمله دائما فى منطقة يديرها حول جسمه من دون ثيابه : يحس هو ثقلها ويجد دفئها وينعم بجوارها المتصل .

وقد خرج المأذون ذات مساء ليفرق بين زوجين فى قرية بعيدة وعاد الى قريته وقد أظلم الليل ولكنه يسمع فى الطريق صوتا مروعا يدعوه الى الوقوف فاذا هم أن يمضى روعه الصوت مرة أخرى فوقف وقد ملأه الفزع ولا يكاد يقف حتى يحس برد السلاح على قفاه ويسمع الصوت يدعوه الى أن يعطى ما معه من المال . فاذا هم أن يمتنع خيره الصوت بين المال والحياة فيختار الحياة آخر الأمر وينزل عن ماله ويعود الى أهله مسلوب المال والصحة والعقل جميعا .

ويتصل هذا النوع من الارهاب مرة ومرة ومرة حتى تمتلىء قرية السلام رعبا وذعرا ولا يجد العمدة سبيلا الى استكشاف هذا الشيطان الذى روع القرية بعد أمنها فأرق ليلها ونغض نهارها وأفسد أمرها كله . والمأمور يطالب العمدة بالمجرم وينذره بالوقف إن لم يدل عليه . !

واذا كان العمدة لا يعرف هذا المجرم فالقارىء يعرفه حق

المعرفة فهو كمال الذى يتكفف الناس فى النهار ويسلب الأغنيـاء أموالهم اذا كان الليل . وقد جلس كمال الى رفاقه يتداولون بينهم الحشيش ذات ليلة ويتحدثون فى أمر القرية وما ألم بها من الهول ولكن مجلسهم ذاك لا ينقضى حتى يكون كمال قد أقنع رفاقه الأربعة بأن يكونوا مثله قطاعا للطريق يسلبون الأغنياء ويروعون الآمنين ويتخذونه لهم رئيسا .

وهم يفعلون بعد أن أقسموا على المصحف ليكتمن السر وليسمعن للرئيس وليطيعن أمره فى غير تردد ولا جدال .

وقد وضع كمال لهذه العصبة قاعدة غريبة كل الغرابة فنأى بالقصة عن الواقع كل النأى فهى تأخذ من الأغنياء لترد على الفقراء أقل ما تأخذ وتستأثر بسائره تتخذ الخير والبر وسيلة الى الاجرام والاثم . تريد أن ترضى الفقراء على حساب الأغنياء فى ظاهر الأمر وتريد أن تعز أولئك وتسلب هؤلاء فى حقيقة الأمر . ولا تلبث العصبة أن تفرض الاتاوة على كل قنطار من القطن يباع وعلى كل ما يمكن أن تفرض عليه الاتاوة ولا تتردد فى قتل من لا يستجيب لها من الذين تفرض عليهم آتاواتها . وقد قتلت بالفعل مرة فملأت القرية فزعا وهلعا حتى أذعن المالكون لأمرها . وكان العمدة نفسه بين المذعنين وان أخفى تأديته للاتاوة محافظة على ظاهر من احترام هيبة الحكم والسلطان .

وجعلت الألسنة تنطلق بالثناء على «جماعة الخير» هذه والدعاء لها فى الاعلان وتكتم القلوب بغضها ومقتها واستعداء الله عليها فى أعماق الضمائر . وأصبح كمال غنيا موفورا قد ظفر بارضاء حاجته الى الغنى وبارضاء نفسه من اذلال الأغنياء الذين كان يتحرق حقدا عليهم وحسدا لهم .

ولكن فردا واحدا من أهل القرية يأبى أن يذعن لأمر المجرمين ويزمع أن يخرج قناطيره القليلة من القطن الى المدينة سرا فى ظلمة الليل فيبيعه ويعود بثمنه آمنا ولكن العصبة فطنت له فتربصت به فى الطريق وقتلته .. وكان العمدة وأحد الخفراء عائدين من المحطة فسمعا صوت السلاح واستخفيا ولكنهما استطاعا أن يريا شخص القاتل وأنبأ العمدة المحققين بما رأى وشهد الخفير وقبض على القاتل .. وافتضح بعض أمر الجماعة فأزمع كمال أن يروع العمدة حتى ينكر ما أثبت فى التحقيق. ووجد الوسيلة الى ترويعه فاختطف ابنته تلك التى أحبها واستيأس منها وهو لايزال لها محبا ومنها يائسا فهو لا يريد بها شرا وهو لا يطمع منها فى شىء ولكنه يأمر الذين كانوا يصحبون الفتاة حين اختطفت أن ينبئوا أباها بأن ابنتـــه سترد عليه آمنة يوم يعدل أمام النيابة عما أثبت فى محضر التحقيق.

ويلجأ العمدة بعد خطوب الى ذلك الكبير الشرير الذى يقيم فى قرية مجاورة والذى اتصلت المودة بينه وبين المجرمين ليرد عليه

ابنته فيعده بذلك . ويتقدم الى أصدقائه فى أن يردوا الفتاة على أبيها لأنه محتاج اليه فى الانتخابات المقبلة . ويأبى الأصدقاء اشفاقا على أنفسهم وعلى زميلهم ذلك السجين ويخرجون وقد انتقض الود بينهم وبين صديقهم ذلك الكبير الشرير . فهم قد أضمروا قتله من ليلتهم وهو قد أمر رجاله بقتلهم من ليلتهم أيضا وتكون موقعة بين الجماعة وبين رجال الكبير الشرير فتقتل «الجماعة» وترد الفتاة على أبيها ويعود الأمن الى القــرية . وتنتهى هنا قصة الروع . فتنتهى معها قصة أخرى لحب لم نشر اليه .

ففى القرية فتى من أبناء الأغنياء قد أتم التعليم العالى أو كاد يتمه وأبوه صديق للعمدة وبين الفتى والفتاة حب قديم يرجع الى الطفولة وقد طلب الفتى الى أبيه أن يخطب الى العمدة ابنته فرفض العمدة الخطبة لأنه يريد لابنته زوجا أوسع ثراء وأعظم جاها من ابن صديقه . ولكن قصة الروع تنتهى فتنتهى معها قصة الحب لأن العمدة يقبل الفتى صهرا له ويرشحه مكانه عمدة للقرية ويزمع السفر الى القاهرة هاربا من القرية ومما لقى فيها من روع لا هاربا من الأيام كما ظن الكاتب .

وقد لخصت لك هذه القصة فى اطالة شديدة وفى ايجاز أشد منها لم أجد بدا من الاطالة لأبين لك أن القصة واقعية فى تفصيلها نائية فى جملتها وفى غايتها عن الواقع . كل التفصيلات يعرفها الناس

ويرون أشباها لها فى حياة بعض القرى أحيانا ولكن هذه الجماعة التى تأتلف لتأخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ليست من واقع الحياة فى شيء . ليس من واقع الحياة أن يتخذ الناس الاثم والمنكر وسيلة الى الخير وأن يتخذوا هذا الخير نفسه وهو اعطاء الفقراء وسيلة الى اقتراف الجرائم والآثام .

كل هذا قد ابتكره خيال الكاتب الشاب ابتكارا وليس عليه بذلك بأس ، فمن حق الكاتب أن يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئا . ولكن ليس للكاتب أن ينسى أن قصته تنشر على الناس فيقرأها منهم الراشدون والقاصرون ويقرأها منهم العقلاء والأغرار وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرأون . وقد يصادف من نفوسهم مواطن الضعف وقد يورطهم ذلك فى بعض ما يسوؤهم ويسوء الناس بهم . والكاتب مسؤول أمـــام ضميره أولا وأمام «الجماعة» التى يكتب لها ثانيا . فليس له بد من أن يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر أو يذيع . ولست أدرى من أين اشتق خيال الكاتب لهذه الصورة صورة العصبة الآثمة التى تتخذ الاثم وسيلة الى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة الى الاثم . أيمكن أن يكون قد قرأ كثيرا أو قليلا من أخبار الصعاليك فى حياة الجاهلية وفى بعض الأمصار العربية بعد الاسلام . أولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش ويكرهون النظام الاجتماعى الذى لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون اليه فيخرجون على النظام ويستبيحون لأنفسهم النهب والسلب والقتل أحيانا ويعيشون فى

عزلة عن الجماعة لا يدنون منها الا ليروعوها ويرزأوها فى أموالها ثم ينأون عنها ليعيشوا فى عزلتهم أجوادا كراما يؤمنون الخائف الذى تنقطع به الطريق ويطعمون الجائع ويعطون المحروم . يرون هذا كله مكملا لمروءتهم ومحققا لرجولتهم ويفاخرون بهذا كله فى شعرهم الذى حفظت منه كتب الأدب أطرافا لا بأس بها .

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى فنحن لا نعيش فى البادية ولا فى القرن الأول للهجرة وانما نعيش فى الحاضرة ونعيش فى القرن الرابع عشر للهجرة وما ينبغى لعصر الصعاليك أن يعود وهو لم يعد والحمد لله . فيكون الأستاذ قد قرأ شيئا من أخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الأغنياء ليردوا على الفقراء .

ولا يغضب الكاتب فقد كنت أحب له أن يجد صيغة أخرى غير الأخذ من الأغنياء والرد على الفقراء لأن هذه الصيغة مكانها الملحوظ فى فرض الزكاة وتحبيب الصدقة الى الناس .

وأنا بعد هذا معجب بمنهج الكاتب فى قصته ومذهبه فى هذه الكتابة باللغة الفصيحة النقية التى لا تشق على قارىء مهما يكن حظه من الثقافة وهى لا تنأى مع ذلك عن اللغة التى تليق بالأدباء ولا تنحط بهم الى الاسفاف والابتذال .

وأنا واثق بأن كاتبنا الشاب قد بدأ طريقا طويلا أصابه شىء كثير من النجح فى أولها وما أشك فى أن حظه من النجح والتوفيق سيزداد ويعظم كلما مضى الى أمام .

محتويات الكتاب

مطبعة [illegible]
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة

الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر
٥٣ شارع الجمهورية بالقاهرة

يطلب من
الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع
دار المكتب التجاري ببيروت ، ومكتبة المثنى ببغداد

٢٥ قرشا